# ليالي المطر الدافئة

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail **unecriv@net.sy**
aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu-dam.org

الإخراج الفني: وفاء الساطي
تصميم الغلاف: ميسم حسن

زهار الشامي

# ليالي المطر الدافئة

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق

سلسلة القصص (1)
2012

غيوم داكنة

فوق جسر أبيض

# 1

**أشـتهيك في هـذا الـصباح الربيعـي** المطـرّز بالغـيم الأبيض، وبغلالـة مـن ضـباب خفـيف أخـذت تـتوارى أمـام شـروق صافٍ، وبقايا مطر مازال الجسر يستحمُّ بها وألتهم بعيني هـذه الـزنابق الـتي تفـتحت وحلقـت بأجـنحة بيـضاء، ومازالـت جـذورها تمـتد وبـصلاتها تتناسل حتى أعطته هذا الإطار البديع .

وأنـأ أتكـئ على الجدار الحجري، وأستمتع بالانتظار الـذي قـد يطـول وقـد يقـصر ولكـنه سيقودني إليك ... فـأنا منذ مدة طويلة لم أنتظر أحداً .

* * *

قـد تـأتين غـداً، أو بعـد غـدٍ، تخـرجين كعادتـك تعقـدين "الإشـارب" للخلـف وتلمـين بـه شـعرك ثـم تقطعـين الجسر لجلب الماء .

أبحث اليوم عن نظرتك الخجولة التي كانت تلهب مشاعري، رؤى وصوراً متراكمة آسرة .

وتشعل النار في شراييني كلها.

* * *

وقد أتاني العشق في تلك الفترة طيراً جميلاً حطّ على نافذتي، نثر حوله فوح المروج وترانيم السماء، فعدت إلى دفتري أحاول أن أعصر الحروف وأكتب الشعر ولكن الكلمات خانتني، فغرقت في حالةٍ من الذهول والاشتياق والذوبان في كل شيء حولي .

أتاني نجماً أساهره، فكان قريباً من نفسي بعيداً عن لمساتي، أعبر معه المجرات وأحمل مفاتيحها بيدي .

وأتاني نظرة حالمة من كاتب، وضع القلم جانباً واستراح إذ بعد أن كتب جملته الأخيرة أخذ نفساً عميقاً، ثم خرج من عزلته وليله إلى النهار والضجيج حتى يولد ليلٌ آخر وكلام آخر ....

واليوم رأيته شيخاً في عباءةٍ محني الظهر فتحت له الطريق ونزلت عن الجواد، وتركته يعبر ....

ثم ... عبرَ الزمن وتركني ... أتملىّ كلَّ حجر من هذه الأحجار الزرقاء والسوداء القديمة المنداة بالماء المزينة بخربشات الذكرى من رسومٍ وأحرف.

* * *

متى بني هذا الجسر على شكل قنطرتين فوق هذا الوادي الذي شقّ لنفسه طريقاً بين الجبال والهضاب إلى أن وصل إلى هذا المكان ودون أن يتدخل أحدٌ في مشيئته يتدفق من بعيد ويتوالد كالأفكار!! .

لا أحد يعرف ..... هذا حدث في الزمن القديم . فالناس الذين يسكنون هذا المكان منذ وجدوا تفتحت أعينهم عليه يقطعونه في اليوم عدة مرات، لقضاء حوائجهم وقد تعودوا على وجوده بينهم، كالهواء والشمس والقمر، جاراً عزيزاً دافئاً حنوناً، يرصد الأخبار ويختزنها.

بين أحجاره تختبئ الأحلام، وتغيب الأسرار تمرُّ فوقه الكواكب، وتمرق الشهب الحائرة ساعة تشاء.

فكان أحدهم عندما تضيق الدنيا به ويقارب على الاختناق، يصعد درجاته الحجرية ويتمشى قليلاً في الهواء الطلق، وأجمل ما يكون ذلك في فصل الربيع، إذ تكون الزنابق البيضاء على جانبيه قد تفتحت، يحاول عندما يمرّ أن يلمس أقمارها، يسرق بعضاً من عبقها وقد يكفيه في بعض الأحيان رؤيتها.

ما زال يتكئ على الجدار الحجري، هبّ نسيم معطّر بندى الذكريات، ثم لفح وجهه وهج الاشتياق فقال:

أين أنت؟! أدعوك لأن تخرجي قليلاً فأنا قطعت تلك المسافات، وتحملت تعب السنين لأعود إليك، وعندما

سألت عنك قالوا لي أشياء كثيرة، تأويلات وتفسيرات وشروحاً للحالة، للمرض الذي عانيت منه بعد الزواج ولكنهم لم يقولوا الصدق، لأنهم لا يعرفون الحقيقة؛ حقيقة أنك لم تموتي فما زالت صورة القلب مرسومة على ذلك الحجر وفي داخلها حرفان، الألف والفاء، كل منا كتب حرفاً، وتعاونت يدانا في رسم القلب والسهم الذي يخترق بقوة، لمست يداي شفتيك ثم غبنا معاً في قبلةٍ طويلة..

* * *

أذكر عندما عبرت بنا السيارة الجسر نظرت إلى الوراء كانت الزنابق ذاويةً أردت أن أقول للسائق قف، ولكن عشرات السيارات عبرت بعدنا.... وتركتها.

في ذلك البلد البعيد كان جسدي يتناثر هنا وهناك، ولكنّ صوتك ظلّ فرحا دائماً للروح، وظللت في عمق أحلامي، لم تغادري.. بعدهاً... لملمت الجسد وحبكته من جديد وعدت.

مازالت الحروف لما تجف، سأغسل عنهما دائماً غبار السنين وأمنع مجيء الخريف وصقيع الشتاء ليبقى ممر خطانا مخضراً ويبقى الماضي... حياً، وتبقى الذكريات

* * *

وهـذا أنـا... بـين الـصبية نـصف عـارٍ ألهـو بالـتقاط الـضفادع والحـشرات الأخـرى، بعـد أن شـحّت مـياه الـوادي وانحـدرت صـافية تـتجمع في مـستنقعات صـغيرة، يحـوم فـوقها الفـراش والحـشرات الطائـرة، وقـد غـدت ملعـباً للصغار. يضجُّ المكان بزقزقتهم وصياحهم.

وأرى حـسن، كـان أطـول مـني وأكثـرنا جـرأة في الـتقاط الـضفادع، صـبغت الـشمس وجهـه، شـعره مـشعث منفوش كأنه يضع طاقيةً سوداء على رأسه.

كـان يعلـم أنـني أحـبها ولكـن اسـتغل فـترة غيابـي وتزوجها، هل أحقد عليه أم ألوم نفسي؟!

* * *

مازالـت المـياه تهـدر وتـنحدر بقـوة بلـونها الترابـي المتشكل من تراب المنحدرات والصخور والنباتات، بينما موجة من البرد أخذت تهب عند المساء. استجمع عليّ قواه المبعثرة وانتشل قدميه من مكانهما.

نـزل الـدرج الحجـري وراح يتسكع في الحارة القديمة حارتها..

* * *

# 2

**لم يعرف أحدُ** بأيّ شيء كان يفكر وهو يتمشّى مساءً على الجسر، وقد اعتاد قبل النوم أن يذرعه عدة مرات لتفتح أمامه كل الأبواب المغلقة... أو هكذا كان يتهيّأ له.....

وهذا هو يمارس طقوس حريته كما يحب دون قيد، ينطلق تفكيره في كل الاتجاهات، يتعمق أكثر تقترب منه الأحلام والأمنيات تدغدغه وتأخذه بعيداً.

مازال شاباً قوياً... أما هي!!.. وماذا يفعل وتلك الصبيّة ـ ليلى ـ التي تنام هناك على كتف الجسر قد سلبت لبّه وحرمته النوم.

فمنذ رآها أحبّها حباً جارفاً لم يمرُّ بمثله فغدا معلقاً بين السماء والأرض، وكأنّ نسراً حمله وطار به.

فكر في الأمر كثيراً، وقلبّه من وجوهه كلها، وتأكد أن لا شيء يعيد له طعم الحياة إلا الزواج بها، وإن

كانت صغيرة إذا قورنت به. ولكن من يقول له.. لا ، وهو المعروف بعزه وثروته.

مازال يمشي، والرغبات في صدره تومض ثم تشتعل فيتيه في أفضية لا حدود لها ، ومستقبل مازال غارقاً في حجب الغيب، ولكنه يراه مشرقاً مضيئاً ، فقد اتخذ العشق هدفاً وإن أحرق أصابعه.

وتخيل أنّ زوجته ستغادر هذا الصباح، وعندما يُسأل سيجيب " انقطعت اللقمة " ليس هناك أي سبب سوى قوله لها في إحدى الأمسيات الموجعة إنه لم يعد راغباً بها.

تخرج هكذا لا تحمل إلا صرة من الملابس مع الغصّة والقهر، وهو يبحث في القاع السفلي لذاكرته بعد أن يمسح عنها الصدأ عن كلمة يقولها ، مقدراً تعب السنوات العشرين والتي كانت فيها نعمَ الزوجة.. لم يجد ، كلّ ذهنه وعميت بصيرته ، فأدار ظهره ومضى.

هي تعلم أنّ ما سيفعله زوجها سيعرّيها ويكشفها وكأنها تنام بلا غطاء ، بلا معين أو سند ، وفي مثل هذه الحال تنشط الألسن، وتصبح كالخلايا المريضة تتشعب وتمتد ، لتصل إلى كل التفاصيل و إلى ما خفي عن الأعين فأرادت أن توقف هذا المدّ بأسلوبها الخاص.

لذلك انسحبت ببطء ، من كل ما يجري، ومن كل هذا الصخب الذي أتعبها ، فلبست ثوب التقوى والزهد

هـربت علـى طـريقتها وأعطـته الحجـة " فهـي لم تعـد تـنفع للرجال".

ولكـنها في داخلها بدأت تبني عالماً آخر، عالماً جميلاً أسـسه وأسـواره أكـثر متانةً. نعـم سـتبدأ مـن جديـد، وقـد تبحث عن عمل.

* * *

روحـه ترفـرف حـرة طليقة، والحـب يغـزل أمامـه ألوان الطيف الشفافة، فـأحس أنه يطير مثل نحلة فوق جرارٍ من العـسل خفـيفاً رشـيقاً، مـدّ يـده ليـضمّها ضـمّة طالمـا اشـتهاها، ويشم عـبير أنفاسـها، هـذه الـوردة الـتي لما تتفتح بعد كل تويجاتها.

* * *

مـوته كـان مفاجأة، عندما سقط ضاعت صرخته في العـتمة، لم يـسمع أحـدٌ شـيئاً، ولم يـضعوا اللـوم علـى الجـسر، فقـد بـرّؤوه مـن كـل علـة، فأحجـاره مازالـت مرصـوفة في أماكـنها، وزنابقـه مازالـت تمـدّ أعـناقها للأعلى.

قال أحدهم: كان كالرمح صلابة وقوة.

وقال آخر: لم يكن أحدٌ أكرم منه.

وقال الثالث: مازلنا نتعلم من شيمه وأخلاقه.

ثم بكوا فوق رأسه، وحدها الزوجة لم تبكِ، تركن في داخلها سخرية باردة فقد كانت تعرفه حق المعرفة وتعرف ما كان يدور في أعماقه منذ شهرين، وقد تعمق حدسها أكثر مع الأيام وتيقظت أحاسيسها، فتساءلت: ماذا يجري حولها؟! فالماء الذي شرباه معاً لم يعد صافياً وطعمه لم يعد مستساغاً، كل شيء تعكر، أحدهم رمى حجراً.

* * *

الولد جدعان ـ هكذا كانوا يسمونه رغم أنّ عمره سبعة عشر عاماً – تجده يمدُّ رقبته للأمام قاصفاً ركبتيه وينط كقردٍ وهو يقول ويضحك " مات عمي نايف.. مات عمي نايف " وقد حولها إلى أغنية يترنم بها.

لم يعره أحد اهتماماً. أو يستغرب تصرفه ينظرون إليه ويقولون " العقل زينة " ثم يصمتون بحزن. كان أبو علي نايف فوق كل شك" و ظن"، لم يلاحظ أحدٌ نظرة أبي علي المريبة إلى ليلى غير الولد جدعان.

* * *

# 3

**وجلس تحت الجسر ينتظر**.... يختبئ عن أعين زملائه الذين يسألون ويحشرون أنوفهم في كل شيء وهو بدوره لا يخبئ عنهم شيئاً إلا هذا السر، فهو ملتحم بفؤاده لا يمكن أن يبوح به لأي إنسان، لأنه له.... له وحده.

تلهّى قليلاً برؤية الماء وهو ينحدر من الأعلى مشكلاً حرفاً يشبه اللام، ثم يستقيم في المجرى الذي يمرّ أمامه.. نصت قليلاً ولكن ذهنه لم يكن صافياً حتى يسمع الخرير العذب الهادئ، فأحس بطول هذه اللحظات التي تحولت إلى ساعات لا نهاية لها.

أكثر من مرةٍ سأل نفسه وهو واقف أمام المرآة المكسورة يمسّد شعره:

هل هو عاشق؟....

ضربات قلبه يسمعها بأذنيه عندما يراها...

بم... بم... بم... يتخيلها في كل مكان حتى غدت كل عالمه وما يحلم به.

يسمع من رفاقه كثيراً من الكلمات والتسميات البذيئة وكلمات الجنس، ولكنه لا يعيرهم اهتماماً فهو في عالم آخر، بعيد كل البعد عن عالمهم الأرضي ،عالم سماوي كل ما فيه جميلٌ ومؤثر.

عندما أقبلت تلبس مريلة سوداء وتضع قبةً بيضاء تحيط بعنقها مربوطة بشرائط حمراء فرشت الزنابق أمامها بساطها الأبيض، فمشت تدوسه بأقدامها الصغيرة.

مدّ يده وألبسها تاجاً من اللؤلؤ وأغمض عينيه، " يا أللّه ما أجملها!! "..

مشعة كالشمس، بيضاء كدرةٍ مكنونة، هكذا رآها في ذلك الصباح. في هذا اليوم المشرق أراد أن يقول لها شيئاً لذلك قطف زنبقة، ثم قطف نورة عنبر من الأشجار التي كانت تفح روائحها من الجهة الأخرى. ووقف ينتظر بينما حمل الحقيبة باليد الأخرى، إذا قبلتها سيكتب غداً لها رسالة وتكون زهور محبة يشرح فيها كل شيء.

صوت الجرس يصل إليه من مدرسته القريبة، وكانت أول مدرسة بنيت أيام الوحدة، في هذا المكان اصطف التلاميذ، وهاهم ينشدون نشيد اللّه أكبر.

هل يسرع أم ينتظر؟.....

تقدم نحوها... ممتلئاً بالحب... أسرع الخطو... الأستاذ وراءه صاح بصوته الجهوري، فأحدث رعدة في مفاصله، وتوقف دمه عن الدوران، وعنفت ضربات قلبه أكثر.

( هل في ملامحه ما يدل على حبه؟....).

* * *

يركع في ركن قصي مع حزنه وخيبته، يرى الضباب حوله مخيماً في كل مكان، كم يحتاج الآن إلى يدها الناعمة ترفع جبينه وتقول: ولا تزعل، فتختنق العبرات في صدره ماذا يريد منه المعلم؟!

ذلك التأخير لا يستحق هذا العقاب والفلقة ولكنه لم يندم كم أحبّ التأخير في هذا اليوم!.

صوت رفاقه يصل إليه من الشعبة قوياً، فيجدد ألمه، كم يحب حصة النشيد هذه!!.. ينتظرها من أسبوع لآخر.

لقد بدؤوا بنشيد حماة الديار، ثم بلاد العرب أوطاني ونحن الشباب.

كأنه يراهم، صوتهم يعلو ويعلو، وحماسهم يشتد أكثر بحيث يتحول الصف إلى كتلة من لهب مع نشيد الجزائر قسما بالنازلات الماحقات والدماء. الزاكيات الطاهرات

ترتفع قبضاتهم في الهواء، تحمّر وجوههم، منهم من يدق على المقعد الخشبي، يشقون طريقاً وسط الغمام مراكبهم تبحر في بحرٍ هادئٍ أزرق.

تتعلق عيونهم بكوكبٍ يومض في الأفق.. إليه يشدّون الرحال.

آه... كل تلك الأناشيد يحفظها عن ظهر قلب، كثيراً ما يردها في المنزل، يحفظها دون علم بالموسيقى ولا بالعلامات ولا بالآلات، التي لم يعرف منها إلا الناي والدف.

ولكنه كان يتقن لحنها، فهي تمثل في ذاكرته شيئاً مهماً عظيماً لم يحدده بدقة ولكنه يحسّه قوياً عميقاً، يشبه إحساسه عندما رأى الرئيس عبد الناصر يطل من السراي الحكومي..

ولكن السؤال الذي ظلّ يلح عليه في اليقظة والحلم أنَّ ذلك التأخير لا يستحق ذلك العقاب إلا بعد أن عرف من أهل حارته بعد سنتين، أن الأستاذ خطب تلك التي كانت حبيبته.

* * *

# 4

**قلبه كالإسفنجة**، هكذا قال لصديقه عندما دعاه لرؤية فيلم " التايتنك" يمتص منذ أربعين عاماً ما حوله من مصائب وهزائم، حتى ارتخى وتدلى، وعاهد نفسه في الفترة الأخيرة ألا يرى إلا ما هو " كوميدي".

قال لنفسه وهو يمسّد شعره الأشيب: هل سأجد هناك حسنين، وهل سيبكيني البطل مرة أخرى؟!

وتذكر عندما تعرف للمرة الأولى على السينما، كان ذلك في الستينات في أيام الوحدة.

* * *

صعد الأهالي الجسر من جهتيه الشرقية والغربية مسرعين متسائلين عن هذا الفيلم الذي سيشاهدونه في المدرسة.

في الباحة الواسعة المفروشة بالرمل الأسود جلسوا، قسم قعد على الأدراج، وقسم من الأولاد ركب السور عندما بدأت الخيالات تتحرك أمامهم، لبستهم الدهشة فتقدم بعضهم ولمس الشاشة بوجلٍ، ودقق في كل زواياها، ثم مدّ عنقه إلى خلفها وقال باستغراب:.... لا أحد....

ثم ران صمت كثيف.....

اثنان فقط مازالا يتحركان، القمر في السماء، وشخوص السينما ومناظرها. في تلك الأمسية المبهمة والمؤثرة، تابع الناس أحداث الفيلم بشوقٍ لا مثيل له وقد اختلط في تلك الساعات الحزن بالفرح كما يحصل عند لقاء الأحبة وبكى الصغير والكبير.

تعاطف الناس مع حسنين حبيب شوقية التي عاهدته أن تكون له. هذا الولد الفقير والجائع والمتعب أطلقت عليه رصاصة وهو يقطف عنقود عنبٍ من بستان أحد الإقطاعيين.

أما المفرح في هذه الأمسية فهو الإحساس بخلاصنا من ظلم الإقطاع أو هكذا تهيّأ لنا، فأزهرت الأماني وتدفقت الأحلام.

* * *

عاد الناس بين هرج ومرج، استراحوا قليلاً على الجسر مازالت أحداث الفيلم على ألسنتهم تحادثوا قليلاً ثم نزلوا وغابوا في الطرق والممرات.

تأخرت قليلاً، وقفت أتلمس الأبيض المخملي وأطيل التفكير، وأطيل النظر إلى البعيد، وسؤال يلحُّ على فمي، لماذا يسرق الآخرون أحلامنا؟.. وهل ستكون نهايتي كنهايته..

* * *

ما كان أكثر الشبه بيني وبين حسنين، عندما جلست إلى جانب سلوى في تلك الأمسية، بعد أن زلحفت كثيراً لأكون بجانبها.

في تلك اللحظات تسارعت دقات قلبي وازددت توتراً وغدوت ضعيفاً هشاً أمام الأوامر التي تغزو عقلي وقلبي معاً، أن أمسك يدها... أمسد شعرها، ألصق كتفي بكتفها بينما كانت مسحة من الخجل تضيء وجهها الوردي الجميل عندما تنظر إلي.

في الطريق كثير من الأفكار السوداء غزت مخيلتي، فقلت: قد تكون أحداث الفيلم هي التي رسمت تلك الهالة السوداء فأنا في بداية الطريق.. والطريق طويل...

وقفت أمام منزلها... مازال مضاءً، قد ألمحها فتعيد لي الأمل والثقة بالمستقبل ولكني لم أجدها فمشيت وأنا أتعثر بالعتمة.

* * *

عندما كبرنا، وأظهرت الحياة لنا كل وجوهها، ما كان مستوراً منها ومخفياً، وبعد أن أدركنا أن المستغلين يتوالدون ويتكاثرون كسلاحف البحر، خفّ بريق الحلم أو لنقل انكسر، ولكن نظرة حسنين وما فيها من خوف وفزع إلى الرجل الذي صوب البندقية إلى وجهه، واختطف منه الحلم مازالت كابوساً يخنقني.

قلت لصديقي: ألم تجد إلا " فيلم التايتنك"..

* * *

# 5

**ما زال صوتها في أذني**... صوتٌ فجائعي... حاولت أن أسكته... سددت أذني ولكنه كان يغوص إلى الأعماق، ويرمي بي بلا رحمة في بئر عميق القرار مع كل الحزن والحقد والتساؤل نظرتْ إلي وهي تخبئ رأسها بين ركبتيها، وتتكوم إلى جانب حائط الجسر، نظراتها كانت زائغة... تائهة وكأنّ بها مساً من الجنون أو كأنها رأت شبحاً من أشباح الأساطير القديمة.

يا عمو... شو هذا؟!...

ليش!!... شو صار؟!!...

* * *

الساعة الثانية ظهراً، يبست اللقمة في الحلق بعد أن اهتزت المدينة اهتزازاً قوياً وكأن زلزالاً أصابها، وقد شعر كل واحد أن القنبلة قد وقعت في داره هو، رغم أن

الضربة كانت بعيدة.. كل شيء تخلخل وخلع من مكانه النوافذ.. الأبواب. الأعمدة، خرج الناس من منازلهم وتجمع أكثرهم على الجسر يستطلعون الخبر، ويلاحقون بعيونهم صوتاً يهوّد إلى الأعلى، في السماء العالية جداً.

فرؤوا بعيونهم التي غدت حادة وثاقبة أكثر نقطة بيضاء تبتعد وتترك وراءها رجع صوتها.

- ماذا حصل؟!.

- شو في؟!..

- بدأت الحرب؟!

- قصفتنا إسرائيل... ضربوا القلعة.

- الملاعين... الأنذال.

- انظر.... انظر.. مازالت تحوّم هناك... طائرتا فانتوم.

تحرّك الناس باتجاه الغرب وهم يسندون أكفهم إلى جباههم لتشكل مظلة، محاولين اختراق هذا الفضاء والبحث عن نقطة بيضاء تتحرك.

ثم صاح أحدهم: يا شباب! الجسر.... ابتعدوا... الجسر سينهار.

محاولاً إبعاد الناس عن الوسط وتفرقتهم، لم ينتبه إليه أحد... ضاع صوته، بعد أن داروا ظلوا مشغولين

بالبحث ثم التفتوا دورة واحدة إلى زاوية الجسر الجنوبية.. صوت انهيار كقصفٍ مرعب، حيث سقط حجران كبيران بعد أن تخلخل المكان إلى وسط الوادي سدا مجرى الماء بعد أن التحما مع الأحجار الأخرى.

أبو فواز كان يقف بعيداً، لم ينظر إلى السماء كان ينظر للأرض، يبحث عن شيءٍ ما، ثم بدأ يدور حول نفسه وكأن النيران قد أكلت ثيابه وجسده...

رمى عقاله ثم حطته وهو يتمتم، ينبغي أن يفعل شيئاً كم شعر أنه حقير وتافه ( كيف وصلت إلى هنا؟ مرت من فوق هذا الجسر ثم غادرت).

لم يشعر قبل ذلك بمثل هذا العار الذي جرّده من آدميته وكأن امرأته قد اغتصبت أمامه، إنه جبان حتى النخاع تلفظه الأرض كما يلفظ البحر أمواته.

صرخ... وتحدّى وبكى، حتى اختنق صوته وتحول إلى حشرجة.

نزل وأخرج بارودته، وكما تلف العاصفة في داخلها صفير الرياح وأنين الأشجار المنخلعة من تربتها، وانحناءات أشجار السرو وذلها أمام العاصفة.

هكذا كان حال أبي فواز. في قلبه كل ذلك وأكثر..

ظـل يطلـق الرصـاص باتجـاه الغـرب، شـرارات مـن الغضب كانت تتطاير مع كل رصاصة إلى أن أفرغ ما في قلبه، كـل مـا فيه، ثـم تمـدد علـى الجـسر وفـوقه... خيم الصمت ثقيلاً.. ثقيلاً..

* * *

# 6

**وصل مستحماً بعرقه**، فرمى بنفسه تحت الجسر في زاويته العتيقة الحادة كحجر اتخذ مكانه بين عدة من الأحجار، ثم التحم بنسيج العتمة والسكينة المخيمة.

من المكان فحّت روائح الرطوبة والعفونة، ثم داهمه برد ليلي نفذ إلى عظامه، فغرق في ثيابه... ثم غاب...

بعد أن التقط أنفاسه، أحس بروح تتنفس ببطءٍ في الزاوية الأخرى وتنحشر بين حجرين كبيرين فحملق مدهوشاً.

أما الرجل الآخر المزنّر بالخوف مثله فقد أحسّ بدنو النهاية، فاستسلم لها استسلاماً كاملاً، فهو لا يتوقع إلا الاحتمالات السيئة، لذلك لم يتحرك من مكانه، ولم يبدِ أية رغبة بفعل أي شيء.

قال لنفسه: وأخيراً... ها هم قد وجدوا مكاني.

خارج رأسيهما مازال كل شيء هامداً، أما في داخل هاتين الجمجمتين، فالأفكار تتصالب، تتقاطع، وتتواشج، ثم تتوقد.

نظر كل منهما للآخر.. فانعقد الخوف قنطرة أخرى فوقهما والصمت والترقب.، وكأن قوافل الكلام ارتحلت إلى غير رجعة، والعي أصاب اللسان والجسد وكل شيء.

من يبدأ؟!.

بعد لأيٍ قال المزنر بالخوف..

- من؟!...

- صديق، لا تخف...

في تلك اللحظة، أضواء كاشفة سطعت فمسحت المكان تنتقل من زاوية لأخرى، ارتفعا وتعلقا في الأعلى كالخفافيش، ثم حلّ صمت أقرب إلى صمت القبور وقالا بصوت واحد:

لقد أتوا....

الضوء الأصفر تشربه العتمة، وينحشر بقوة بين ثنايا الأحجار، يدخل إلى مجرى الدم، وإلى مجرى الدمع تتسع الحدقة أكثر، ويتسع انتشار الخوف، وتتسع مساحته في الدم. ويغرز أنيابه في كل الاتجاهات.

ـ ماذا تقول؟!...

ـ هس.... هم فوقنا..

عروق الجسد تمتص وقع الخطوات فوقهما، وصوت مجرى الهواء إلى الرئتين وهسيس التراب والعشب، بينما الأضواء الصفراء تحاصرهما وتصفعهما بقوة من كل الجهات من الأعلى والأسفل من الشرق والغرب. وغدت العتمة نعمة يتمنيان دوامها، يهربان إليها وينحشران في ثناياها.

ثم لم يُسمع بعدها شيء إلا وجيب قلبيهما وصوت سقسقة مياه الوادي في الأسفل.

ـ كأنهم رحلوا... قال سعيد:

نزلا وجلسا بصمت، بينما فرش القمر لونه الفضي حولهما بعد أن أفرجت عنه الغيوم.

قال سعيد:

ـ لماذا يلاحقونك؟..

ـ أنا سارق، سرقت مئتي ليرة من محل تجاري وفي وضح النهار، قبلها سرقت الشيطان وخبأته هنا في صدري وأنت؟

ـــ أنا أقاتل من أجل سيادة الحرية والعدالة الاجتماعية.

ـ ولماذا تختبئ؟!

دع الليل للسارقين مثلي وللمجرمين وللأفاعي والديدان والخفافيش، أما أنت فارقص مع أحلامك في ضوء النهار أجاب سعيد. أنا الصوت الآخر، ضاقت بهم أسئلتي لأنها كثيرة ومقلقة في رأيهم.

ـ شو يعني؟..... سكت قليلاً ثم قال وأنا لا أختلف عنك كذلك أريد تحقيق العدالة بطريقتي.الشيطانية.

قال سعيد:

ولكن ما فعلته أنت كان سرقة، اسمها سرقة في كل الديانات والأعراف.

ـ ها ها... قل لي من لم يسرق.

ـ إذاً.... أنت تعترف أنها سرقة، لا يمكن أن أبرر لك فعلتك مهما كانت الأسباب، كان ينبغي أن تبحث أكثر عن أساليب للعيش الشريف.

ـ في البداية أطلقت كل أحلامي، فنفرت في كل درب سابحة في المدى، ولكنها رجعت كسيحة خائبة. ثم فكرت وفكرت حتى عجزت، ومع كل صباح كان يموت جزء منها وأنا أبحث عن طريق يوصلني إلى لقمة الغداء.

عندئذٍ كتبت وصيتي.

ـ لا بأس، إن تطلقها مرة أخرى، الحياة غنية، ابحث عن عمل يطعمك مدى الحياة..

كأنني لم أعد أقوى على منازلة الظروف إلاّ بالسرقة، أنا أقهرها الآن.

أما أنا فقد سرقت الحرف.

لي ديوان واحد، أرى أن الإنسان يبحث دائماً عن الخلود بعضهم يرى خلوده في أولاده، والبعض الآخر يكتب مذكراته. وأنا لا أملك شيئاً أتركه إلا هذا الديوان، يرتاح بعد موتي في مكتبة ويجاور كتباً أخرى ويعيش حياة أخرى، أعرف رجلاً عاش عمراً قصيراً، ولكنه أطال عمره من خلال ديوانه الذي تركه.

ـ أنا لا أفهم هذا الكلام، عن أي شيءٍ تكتب؟....

وعندما لم يجبه ضحك ضحكة مكتومة وقال:

أرأيت؟!!!...

نحن نجتمع معاً، هاربين، متمردين، خارجين على السلطة، نحن في الموقف ذاته، نهرب من ضوء النهار.

ـ ماذا لو عرفوا مكاننا وضربوا الجسر؟!

ـ لا لا... إلا الجسر.. قم سنجد مكاناً آخر

* * *

# 7

**صوت منذ الفجر أيقظ الجميع**.. الكبير والصغير كل شيءٍ يهتز بقوة، الجدران.. الأبواب... تساءلوا (هل هي هزة أرضية؟!! لا الصوت مستمر وصاخب هناك عمال وآليات)

هبوا معاً، وصعدوا الجسر، منهم من اتخذ طريق الدرج ومنهم من وثب فوق الأحجار والأتربة وفي عيونهم التحدي وبصوت واحد وقد تهيؤوا للعراك.

- ماذا تفعلون بالجسر؟ ستهدمونه؟!!

- لا... كيف نهدمه!! سنضع طبقة الإسفلت وعلى الجانبين حديد مدهون بلون ذهبي جميل، بحيث يصبح الجسر أقوى وأجمل.

- وماذا ينقصه الآن؟ انظر...

- سيزور المدينة مسؤول حكومي.

- وما علاقته بالجسر؟!

ـ سيمّر موكبه من هنا. وهذا الجسر لم يعد صالحاً في هذا العصر.

ـ لماذا؟... إنه جسرٌ أثري جميل وحجارته بازلتية صمدت مئات السنين.

تذكر سالم كلام والده عندما حدثه ذات يوم، قال (وقفت هناك... في منتصف الجسر، البيرق بيد، والبارودة باليد الأخرى، وحزام الفشك يتدلى على خاصرتي.

والجموع متأهبة، وجهتنا كانت المزرعة، عندما مشينا ارتج الجسر تحت أقدامنا).

عمك محمود بعد أن ودّع زوجته أخذ منها الصغير، حضنه وقبله وقال لها " ديري بالك عليه " ثم أخذ يهجّن بصوت عال وكأنه ذاهب إلى عرس، يلفّ حرامه الأحمر حول وجهه، بينما عيناه تتقدان حماسة ونخوة، سألني:

من أين حصلت على حزام الفشك هذا متمنياً أن يحمل مثله قلت:

تركه أحد المغاربة بعد مغادرتهم القرية.

قال: هذا أمرٌ غريب.

قلت: حتى إنهم تركوا بعض المعلبات.

ـ قد يكونون مقهورين مثلنا، أتوا رغماً عنهم.

ـ ممكن.

ثم أكمل حديثه.. لم يعد عمك إلى بيته، يده يبست على مقبض السيف المدمّى، ولم يستطع أحد انتزاعه منها، ثم تركت كما هي.

حملته وبدأت أطوف به بين مئات القتلى، بين المصفحات والمدافع المحروقة وأنا أخاطبه وكأنه مازال حياً.

لم ينج من الحملة إلا القائد وعشرات الجند، حسمت المعركة قبل أن ترتفع حرارة النهار من شهر آب، وسجّل أعظم انتصار....

* * *

لم يعبر أحدٌ الجسر اليوم، لا في الصباح، ولا في المساء خافوا على أنفسهم من السيارات المسرعة التي قد تأخذهم في طريقها مثل أي حشرة.

وهذا ما فعله الشيخ سالم، فقد حمل عصاه مساءً وتدرّج أمام منزله، فقادته قدماه إلى الجسر، رفع رأسه وزمّ ما بين حاجبيه ناظراً للأعلى، كادت الأضواء تخطف بصره، بعد أن وضع عصاه على أول درجة انعطف ورجع إلى منزله.

حتى إنهم لم يستفيقوا باكراً على عادتهم، ظلّوا إلى الضحى، وعند المساء آووا إلى فرشهم مبكرين.

* * *

حاول معلم المدرسة الأستاذ حسين أن يقنعهم بوجهة نظره ويهوّن الأمر عليهم قائلاً:

لمَ كل هذا الحزن والتأثّر؟! غدا الجسر أكثر متانة سيصل بيننا وبين العالم الخارجي، وسيكون هناك محلات تجارية، ومحطات بنزين..و و...

أجابوا: بصوت واحد: لم يعد الجسر لنا، سرقوه منا..

انتزعوه من هنا، وأشار أحدهم إلى مكان قلبه.

قال المعلم: هذا الجسر سيتغير إن لم يكن اليوم فغداً فهو يقع في وسط المدينة..و.....و.

تركوه يتحدث، ثم غابوا مع حكاياتهم وذكرياتهم.....

# مستوطنة القاق

**".... إنـني لا أوافقـك علـى كلمـة مما تقوله لكنني أدافع حتى آخر قطرة من دمي عن حقك في أن تقوله "**

**فولتير**

# 1

**هل دققت في العلامات جيداً؟**

ـ نعم... هناك علامتان متشابهتان، نقشتا على حجرين صغيرين متناظرين، واحدٌ في هذه الجهة، والآخر هناك...

وها نحن نحفر في الوسط تقريباً، وكما تقول العلامات ينبغي أن يكون الكنز هنا، وأشار بيده إلى المكان.

بدأ بإزالة الأحجار الصغيرة ثم الكبيرة بنشاطٍ لا حدود له أخذت الحفرة تتسع، والعمل يصعب أكثر، فالأحجار متلاحمة وكأنها صخرةٌ واحدة تحتاج إلى جهدٍ أكبر.

هاني مسح عرقه عن جبينه وعينيه بطرف كمه ووقف فوق الحفرة وقال:

ينبغي أن نسرع، فالليل قارب على الزوال، أظن أن الكنز تحت هذه البلاطة التي انحشرت بين حجرين كبيرين مصقولة بعناية وكأنها وضعت بفعل نحاتٍ كبيرٍ عظيمٍ ثم جلس على حجر، أشعل سيجارة وأخذ يتأمل جمرتها المتوهجة، ويفكر بالمستقبل.

ماذا سيفعل إن وجده؟

يسحب نفساً من سيجارته، فتزداد توهجاً، تتسع أحلامه، ويسافر عبر المدى، فيتخيل قطع الذهب المكنونة ما زالت لم يفض بكارتها أحد... لم تلمسها الأيدي تحكي تاريخ أقوام حطّوا هنا، ثم أخذتهم الريح معها....

إذا أزحنا هذه البلاطة نكون قد قطعنا مئات أو آلاف الأعوام في هذه الساعات القليلة.

حيث يكون قلبك، يكون كنزك، وأنا كنزي هنا...

( قولي لي، ماذا تخبئين خلفك، أذهبٌ أم تحفة أثرية نادرة؟!!)

تشع عيناه وتتوقدان وتخترقان العتمة كعيني قطٍ بري (قالوا إن الحظ يأتي مرة واحدة وعليك أن تقنصه، قد يأتي الليلة يحطّ بجناحيه الأبيضين ويقول.. ها أنذا!!)

أضاءت ابتسامته سواد الليل.

(سأتزوج بنجوى، وأعيش كما يعيش البشر).

ثم فجأة أحسّ بحركة في الزاوية الأخرى فتنبه، ونظر حوله بشيء من الرهبة (.... ليس هناك إلا السكون وخشخشة أوراق الأغصان النائمة...)

حسن ما زال يحفر، ثم توقف يتأمل البلاطة ويفكر كيف يزحزحها.

قال لهاني...

( صعبٌ جداً.... وكأنها قُصت على " الميلة ")

يتناول المخل ويحاول أن يحشره في إحدى زواياها...

يقف هاني إلى جانبه وهو يقول:

ـ لنجرّب من الجهة الأخرى، هناك قليل من التراب على حافتها...

ـ سأحاول معها.

* * *

مازالت السيجارة تتوهج بين إصبعيه يتأمل بصيصها، ثم يتابع ما يحصل على الأرض فيحمل الفأس ويدق به من الجهة الأخرى.

جسده كـرةٌ تتدحـرج بيـنهما، يخـترق أنفاقـاً مظلمـة مـروجاً خـضراء، ثـم تـصعد الكـرة نحـو الـسماء.. تعلـو وتعلـو.... صـوت صرصـار يعـزف مـن بعـيد، يخـترق بـصوته الخوف والقلق ويزيد من الوحشة.

قال هانـي:

ـ هـل تحـسُّ بشـيءٍ حـولك؟ ونظـر بـسرعة إلى الجهات الأربع.

ـ حولي....!! لا...

ـ أنا أحسُّ بشيءٍ، جسدي يقشعر، وشعر رأسي يقف

بيـنما الـشيخ الجـالس قبالـتهم، يـضيء في العـتمة كالمصباح يمسّد لحيته البيضاء الطويلة بأصابع حريرية، ينظـر إليهم ويبتسم ويراقب ماذا يفعلان، لا أعرف كأنني فقدت حماسي... انطفأت نيراني وأصبحت رماداً.

ـ لا تخـف من شيء، جدران الليل تحمينا، تعال وارفع مـن هـنا، وأنـا مـن تلك الجهـة. قلبه يـزداد خفقاناً، والعرق البني ينحدر من جانبي جبهته.

مـا زالـت الـسيجارة تتوهـج في فـم هانـي، يعـبق صـدره بـدخانها، ثـم يخـرجه مـن منخـريه إلى أن قاربـت علـى الانتهاء، ثم انطفأت ووقعت على الأرض.

ـ لا شيء تحت البلاطة...!.. فاضي...! كلمة لا شيء المطوطة خلفت وراءها شعوراً بالمرارة، وصمتاً خانقاً استمر لدقائق... كما سحبت معها حلاوة كل الأحلام.

أدخل حسن كلتا يديه في الحفرة المجوّفة، تلمّس بأصابعه جدرانها وزواياها، وبصوت مخنوقٍ قال:

ـ أنكون أخطأنا في الحسابات؟!

ـ أجاب هاني

ـ لا.... الحسابات صحيحة.... ورمى الفأس والراح جانباً.

أحد طيور الليل هبّ من مرقده، أحدث خفقان أجنحته صوتاً عندما حلّق وطار إلى مكان آخر أكثر هدوءاً.

مازالا يقفان دون حراك، كجذعين يابسين ثم حانت منهما التفاتة.

انظر هناك.... ذلك الشيخ!!...

ها هو أدار لنا ظهره... ومضى وهو يقول:

هل سمعته؟...

( الكنز في.....)

ثم رأيا دخاناً يتكاثف، ويلتفُّ حول نفسه.

ـ ما هذا؟... دخان في هذا الليل!! هل أشعلت شيئاً؟..

ـ لا أبداً... ليس هناك رائحة، ألم أقل لك قلْ باسم الله الرحمن الرحيم، كنا على وشك الوصول، قاب قوسين من الغنى، فالجان هم الذين يحرسون هذه الكنوز.

قال ذلك، ثم استلقى على ظهره وعيناه معلقتان بالنجوم وقد اختفى أكثرها، فالفجر على وشك الظهور.

* * *

# 2

**لماذا قتلوني؟!** فأنا لا أستحق القتل. قد تكون الصدفة هي التي قادتني...

أتذكر شيئاً، أني لم أكن بكامل وعيي.. أحدهم حملني ووضعني في هذا المكان، لأرى ما أرى.

هل كنت الشاهد الوحيد؟!!....

غداً، سينبت ألف شاهد، يطلعون كما تطلع النبتة من الصخور، وأهم ما في الأمر الآن، أنّ جسدي مازال سليماً بعد أن استقرت فيه هذه الرصاصة التي رمتني أرضاً. وأنا في هذه اللحظات الصعبة وحيدٌ معها، متجاوران متباعدان، صديقان، عدوان.

هي حبيبتي الآن، تأخذ حَيزاً من صدري بينما حبيبتي الأخرى بعيدة... هناك في تلك القرية، تتأمل الفجر بحزنٍ وتنتظر، وقد تكامل خوفي، خوفي عليها، وخوفي من أنْ يلحقوا بي بعد أن تواريت بصعوبة بالغة.

والأمر الآخر، أني لا أزال حَياً، لا أعرف إلى متى، هكذا تقول الوقائع المحيطة بي، مرمياً بين هذه الحقول، حيث الجلال والبهاء والصمت، أستمتع بحريتي الكاملة للتفكير وأستعيد في غمضة عين، ما عشته قبل سنوات، والأفكار لا تني تتوارد يجمع بينها خيط لا ينقطع.

(هؤلاء الكبار يحيرون ويثيرون العجب).

قلت في نفسي..

كيف عرف والدي كل ذلك عندما قال بعد أن أقسم أمامي (يا هاني لا إنت ابني ولا بعرفك إن عملت عنده).

كان عمي مرهج شخصية أسطورية، يحلف الناس باسمه غنى وجاه وسلطان، عندما يمتطي حصانه عصراً ويخرج، يبدو وكأنه أحد ملوك القرن الرابع عشر.

أما منزله فهو عامرٌ دائماً بالضيوف، بوابة قصره الكبيرة المطلية باللون الأسود والذهبي، تفتح وتغلق في اليوم عشرات المرات لسيارات أنيقة تستروح تحت ظلال الأشجار العالية المتشابكة، تنزل منها شخصيات عظيمة ومهمة، كنت رأيت بعضهم في التلفزيون.

أقف وأسترق النظر من منزلنا المجاور، حيث تبدو شرفات قصره كالشهب المعلقة.

يخرج دائماً في التاسعة صباحاً، يحمل عصاه بأطراف أصابع يده اليمنى، لأنه نادراً ما يتكئ عليها، وبيده اليسرى يركز طربوشه فوق رأسه جيداً، ويركب سيارته بكل هدوء ووقار.

وبعد أن يتجاوز البوابة الخارجية، يمد يده في جيبه ويعطي دون حساب، وهكذا عندما يرضى الله على امرئ..!! وهو كذلك لأنه يتعب من أجل اللقمة الحلال وتخيّل لقمة مغمسة بالشهد يبتلعها فتنزل هنيئاً مريئاً.

لماذا أبي يقف هذا الموقف؟! سألته أكثر من مرة، يسكت ثم يقول:

الأفضل أن تنتظر وظيفة حكومية.

وها أنا الآن بلا عمل، داخل هذا المنزل أعيش كالنسوان أصارع وحدي بحوراً من الهم والقلق، أبحث عن عمل يليق بشهادتي الجامعية منذ أربع سنوات، ولكني لم أجد إلا خيبات الأمل، يلحق بي النحس أينما اتجهت والعمر يسبقني ويطوي الأيام والليالي، ويحرق الساعات الساعة تلو الأخرى، وأنا أنتظر، حتى تعفَّن في داخلي كل شيء.

البارحة وقفت طويلاً أمام المرآة، لأتذكر وجهي وأدقق في ملامحي التي غابت عني، فرأيت وجهاً غير الذي عرفته وجهاً مثقلاً بالأسى، يدبّ فوق مسامه الضجر والسأم

هكذا كان يحدث نفسه وهو يمشي عصراً، ولم يعرف وجهته بعد، فقد كان يمشي كالنائم على غير هدى، ثم قادته قدماه إلى الشاطئ.

كان البحر يعزف معزوفته الرتيبة الخاصة به وأغاني الصيادين تصل كالصدى، تضيعها أحياناً أصوات الموج التي تتردد من جوانب الشاطئ.

أخذته الدروب..

واستحوذت على اهتمامه الطبيعة بكل جزئياتها، فتسوّل في زواياها، يقلب الأحجار، يجلس عليها لدقائق، ينظر حوله، ... يفكر

أين هي يا ترى؟...

هذه هي دويبة سراج الليل، يمشي وراءها ويتأمل ذلك الضوء المنبعث منها، إلى أن تعب، فاستلقى فوق الرمال التي مازالت تحضن الدفء، ونظر للأعلى...

مازال الليل في أوله، والسماء في تلك اللحظات أجمل من الأرض بآلاف المرات، طاهرة نقية كقبة الخضر مزار قريتهم، والنجوم مزروعة بأناقة لا مثيل لها، تضيء مثل عروسه التي يحلم بها، وبعيدة كذلك مثلها، ورذاذ البحر المالح ورطوبته يزيدان جروحه حرقة فيشعر بالألم، إذ يرى أحلامه المزدهرة تنحلّ الآن، كما تنحلّ الأحياء الميتة

في أعماق البحر، فغفا وهو يحلم بالعمل عند عمه مرهج.

وهذه هي عروسه خرجت بعد افترار الماء لؤلؤةً حوريةً بديعة التكوين فقام ومشى إليها.

( تعالي... ضميني إلى حجرك، فأنا في فورة الاشتهاء

حتى أخمد نيراني في جسدك المرمري، وأدفن كل الآلام دعي الرقص على أهداب الماء، إنك تبالغين في إغوائي فقد وقعت في شركك، كما وقع آلاف البحارة غيري عندما تبرزين أمامهم، وسط الظلمة العابقة بدخان السجائر ورائحة العرق اللزج، ووجع الغربة.

عندها تنشد الحناجر نشيد الأمل والحياة من جديد.

تعالي.... لا تضيعي مني كما ضاع كل شيء)

ولكنها اختفت، كما هي طريقتها دائماً في الإغواء.

استفاق ونظر حوله... لا شيء إلا الهمسات الكونية الخفيفة... ثم أخذته الدروب مرة أخرى.

في البعيد كانت هناك حياة أخرى لها أشكالٌ وأبعاد أخرى... ظلال تتحرك.. أشباح سوداء.. بزغ في داخله شيء من الخوف، فامتقع لونه ورابه الشك فيما يرى...

ماذا هناك...!؟

( العم مرهج...!! نعم هو! أهذه هي العظمة المتخمة المتورمة؟ أهذا هو الطاووس؟!... كيف تحول إلى ابن آوى يمتطي الليل سراً).

يقف.. كأنه شخص آخر، لا الملامح ملامحه ولا الهيئة هيئته ثم صناديق توضع في سيارات تأتي، وأخرى ترحل لم يميز الوجوه بعد.... تساءل: من هؤلاء؟

هل هم الغربان الذين يأتون مساء؟!

هل هم الجان الذين كان يروي عنهم حكايات كثيرة مشوقة تغزو كل بيت.

تحدث مثلاً عن حتحوت، هذا الشاب الجميل الذي يغوي صبايا القرية، وقد أغوى زوجة الحارس فحملت منه بالولد الأخير، وكما روى... فقد عذبته كثيراً قبل أن توافق، وطالما صرح عن إعجابه بها وحبه لها أمام العم مرهج. أما مركوش فكان صديقه المفضل، يجالسه لساعات وهما يتجاذبان أطراف الحديث بمتعةٍ.

وقد شاعت هذه القصص كما شاع غيرها عن سلال الذهب التي يحملونها إليه...

قال له أحد الناس

ـ ألا يؤذونك؟!

ـ لا فأنا أعمل ما يريدون .

هذا الكلام كان يخيفهم، وهم يرونه يتبدل بصور كثيرة ثم لم يستغربوا ذلك بعد أن تأكد لهم أن العم مرهج "مخاوي "

أخذت الذكريات تبتعد ، .... وترحل كل الأشياء حتى الأحلام... انظر إلى السماء بعينين نصف مغمضتين يغالبهما شعور بالنهاية والعدم، سربٌ من العصافير يحلّق وأنا تقهرني هذه الخنفساء التي تستبيح جسدي المستلقي من دون حراك، تعربشت على كمي ثم أخذت طريقها إلى الداخل وعندما حركت يدي خرجت مسرعة لتنعطف باتجاه صدري، ما أبشعها وما أشد سوادها، أشدّ من سواد القلب في هذه الساعات التي تمرّ بطيئة ثقيلة، كهذه الخنفساء التي تجثم على القلب، وتلعق شرايين الدماء اليابسة المتجمدة إلى أن أتخمت.

بدأت الحرارة تشتد، والصمت يسدّ كل المنافذ، لا شيء يصل إلا أصوات البراري وأصوات الأرواح الهائمة، وأحياناً همهمة من بعيد...

هل افتقدني أحدهم؟!... لا أعرف ظللت أتساءل وأحاول البحث عن أجوبةٍ مستحيلة... هل أنا شاهدٌ أم شهيد؟! ثم بعد تفكيرٍ خلصت إلى نتيجةٍ مقنعة.

أنا شاهدٌ وشهيد.

مازالت الرصاصة حيّة، تجمع حولها الأنصار والأعوان ليهلكوا هذا الجسد الملقى ككجرٍ ثم أخذت السماء تغيم، ولم يعد الفضاء الذي أمامي مفتوحاً، أحدهم أغلقه بسدادة محكمة وأنا مسجون داخل قارورة.

هل سيحلُّ الغروب باكراً... الغروب.. الغروب!!

لا بل الرصاصة ميتة الآن، فالظلمة الخفيفة التي كانت تحيط بي انقشعت، ورجع للأشجار لونها الأخضر الزاهي، ورجعت للنسائم طراوتها العليلة، والحبيبة قد عادت سمعت أغنيتها من بعيد.... ( مازال حياً) ثم رفعتني من قبري يدان عملاقتان، وعبرتا بي البرزخ...

(مازال حياً)

مات العم مرهج في السبعين من عمره، موته كان البداية لحكايات لا تنتهي ما بقي قصره، فبعد أن طلب من أهل القرية رجم الزانية زوجة الحارس وُجد مقتولاً.

لم تحقق الحكومة في مقتله، ولم يحضر شرطي واحد إلى منزله، وما زال قصره إلى اليوم خالياً، لا تسكنه إلا الفئران والجرذان والريح التي تحمل أصداء أصوات غريبة تسمع ليلاً.

* * *

# 3

**( هذا ما حصل تماماً.....)**

في ذلك الشارع الرئيسي، الذي كان قبل دقائق يعيش حركته الاعتيادية اليومية المنضبطة منذ عشرات السنين.

هذان الرجلان في الشرفة يراقبان بلا مبالاة..... لا شيء تغير، حتى وجوه الأشخاص الذين يمرون يومياً إلى أعمالهم، إلا في هذا اليوم فقد عُدَّ يوماً استثنائياً عندما أشارا إلى رجلٍ يقف على الرصيف المقابل ويرفع لوحة مكتوبة.

ـ انظر... انظر هناك شيء غريب، دقق أحدهما في اللوحة وقال

ـ إنه يحتج..

ـ على ماذا؟

ـ سرقت امرأته...

ـ ماذا!

غرقا طويلاً في الضحك وهما يتأملانه، ثم عادا للجلوس وكأن شيئاً لم يكن.

يأتي طفل مشرّد حافي القدمين، يقف أمام المحتج، ينظر إليه طويلاً، ثم يسرق اللوحة ويهرب، فهي شيء يمكن الاستفادة منه وبيعه.

ولكنه يلحق به بأقصى سرعته، يستردها، ويرجع للوقوف في مكانه مصلوباً كما كان.

* * *

عند الظهيرة غدا الوضع مقلقاً، فالناس الذين يمرّون أخذوا يتباطؤون قليلاً... لثوانٍ ثم لدقائق أمام اللوحة منهم من يرفع حاجبيه استغراباً ودهشة.

ـ سرقوا منه امرأته!!.... يا لطيف... ما هذا؟! هل هو مجنون!!

( الدنيا آخر وقت)

ومنهم من لا يعير ذلك اهتماماً، يمدّ رقبته من شباك سيارته ويحصد ما يجري بنظرةٍ سريعة، ثم يعود إلى وضعه وكأنه لم ير شيئاً.

نزل أحد الرجلين من الشرفة العالية وسأله:

ـ هل كانت تستحق كل هذا الحب والاهتمام؟ فأنت تقف هنا منذ الصباح، دون طعامٍ أو شراب.

ـ إنها امرأتي... شريف.

ـ هل كانت جميلة؟

ـ نعم.. هي كل الجمال والحب، كلّ ما أملكه في هذه الحياة.

جميلة... وطموحة أكثر مني، تريد مثلاً.. منزلاً وتلفون يرن وفيديو وكمبيوتر... تريد مثلاً... أن تضع الأولاد في أفضل المدارس وتعلمهم كل اللغات، يروحون ويرجعون بباص المدرسة. مساءً يقف أمام المنزل.. طوط... طوط... فنخرج نحن ونضمهم... وندخلهم المنزل و....و...و

ـ والمدارس الحكومية من أي شيءٍ تشكو؟!

ـ في رأيي لا تشكو من شيء، ولكنها هي تغار... مصابة بداء الغيرة منذ فترة طويلة، إلى درجة أنني أحياناً ألمح الدمعة في عينيها.

قلت لها:

منذ خلق الله الكون وقال للدنيا كوني فكانت، والناس طبقات، والغيرة كما تعرف هي بنت الحسد، وأنا لا أحب الحسد، أعوذ بالله منه، ألم تحفظ الآية " ومن شرّ حاسدٍ إذا حسد " إنه مذكور في القرآن.

أقول لها: احمدي اللّه واشكريه دائماً ( لئن شكرتم لأزيدنكمّ).

أبداً... الغيرة تأكل قلبها كما تأكل النار الهشيم، حتى لم يبق فيه متسعٌ لشيء.

ألم أقل لك! إنها لا ترى الأمور كما أراها، تقلبها من كل وجوهها لا تأخذ الأمور ببساطة... إن اللّه يرزق من يشاء ويحرم من يشاء، أهم شيء في الحياة الحب والإيمان، إذ كلما فاض الإنسان بمشاعر الحب والإيمان زاد ما يعود عليه منه....

ولكنها كانت تحبني...

فعندما أتأخر في العمل ـ إن وجدتُ ـ يطل من عينيها القلق، ثم تقول بعد أن تطمئنَ.. لماذا تأخرت؟... شغلت بالي...

حياتنا كانت شهر عسلٍ دائم... أتذكر ذلك الآن وكأنها إلى جانبي وعبير أنفاسها الطيب بين أضلاعي، إلى أن أتينا بثلاثة أطفال، ضاقت علينا الغرفة، وضاقت حياتنا عندها بدأت تفكر بهم أكثر مما تفكر بي. تصوّر...!..

فتذهب بي الظنون... وتلعب برأسي الشكوك.. (لم تعد تحبني).

وهذا ما يحيرني لأنها كانت تحبني أكثر من أمي...

فأجيبها... كما عشنا يعيشون... لم تقتنع... ألم أقلْ لك إنّ آراءها تختلف.

ولكنها امرأتي والبيت لا يبنى على دعامةٍ واحدة فلذلك سأبحث عنها ما حييت.

وبما أن الحكومة مسؤولة عن كل شيء وتعرف كل شيء وتحسّ حتى بدبيب النمل على الأرض فأنا أريد أن تردّ لي امرأتي.

رجع الرجل إلى مكانه في الشرفة وقد بدا عليه عدم الارتياح.

لم ينته المشهد عند هذا الحدّ بل ازداد تعقيداً، بعد أن تقاطر رجال الصحافة لتوثيق بعض الصور لهذا الحدث المثير، حتى إن بعضهم لم يستطع الوصول بسبب الازدحام حوله والذي أجبر شرطة السير على التدخل لفك الاختناق المروري الذي أخذ يحكم وثاقه على هذا الشارع والشوارع المتفرعة منه، ثم كثر اللغط والهرج والقيل والقال.. وأخذ السؤال يغزو رؤوس المارة وينتقل من إنسان لآخر، ويفعل كما يفعل غبار الطلع في مواسم الربيع والخصب، وغدت كلمة لماذا كالحبل يلتف حول الأعناق، وقد قارب المشهد أن ينتقل إلى مشهد آخر أكثر جدية بعد أن تكاثفت الأسئلة وتحولت إلى غيمٍ مثقل بالمطر.

عندئذٍ نزل الرجل الآخر من الشرفة بعد أن غلت الدماء في عروقه ولم يستطع الانتظار أكثر، وكان يلبس بدلة سوداء أنيقة اقترب منه وأسرّ في أذنه بضع كلمات.

قال الرجل بفرح بعد أن أنزل اللوحة المرفوعة وقد انفرجت أساريره:

أعمل هنا!... ماذا تقول! حارساً!! ببدلة جديدة كهذه....!

والراتب؟!....

# 4

**( لو توقف المصعد....)**

**تـدلّت الـرؤوس مـن الـشرفات**، فـبدت كـالكـرات المعلقـة، وتدحـرجت النظـرات مـن الأعلـى إلى مدخل البنـاية ثقيلة وصامتة.

وبـشيء مـن الدهشة قالت فاطمة بعد أن فقعت بالونها الزهري الذي نفخته منذ لحظات من علكةٍ في فمها:

الساكنة الجديدة...!!

جـارتهم فـريال... زمّـت مـا بـين حاجبيها مبدية اهتماماً مفاجئاً، وبلمحـةٍ اخترقـت بـسهامها هـذا الفـضاء العمـودي الـذي ينتـصب مـن الطابـق الخـامس إلى الطابـق الأرضي ثم قالت:

كل أسبوع نتعرف على ساكنٍ جديد.

كـانت سلوى التي وصلت إلى المدينة منذ ساعتين تنوء بحمـل حقائـبها فالحقيـبة الـصغيرة تـتأرجح تحـت كـتفها

بتواضعٍ جم، بينما تجرُّ حقيبتها السوداء الكبيرة وراءها وقد أحدثت دواليبها طقطقة كمرور قطار بخاري، أو كهذه الضجّة التي أحدثتها صاحبتها دون قصد.

فالناس عادة يفسّرون الأشياء كما يحبون لهوى في نفوسهم، لا كما يريد الآخرون.

سلوى التي أتت من مدينة أخرى بعيده، تعدُّ بحثاً تتناول فيه تاريخ المدن واختلاف تطورها، وأسباب ذلك من حيث الموقع الجغرافي إلى الواقع الاقتصادي إلى هجرة العقول والأيدي العاملة منها وغير ذلك....

أثارني هذا الاهتمام بها من الجارات اللواتي اجتمعن لشرب القهوة، فقفزت إلى الشرفة، ولكنني لم أرَ إلا ظلال الأشياء، ولم أسمع إلا صوت طقطقةٍ أخذ يغيب في الداخل ثم تلاشى نهائياً.

قالت أختي التي تلفّ غطاء رأسها، وتعقده بعصبية عند أسفل عنقها:

من هي يا ترى!؟... ونفخت بالونها مرة أخرى.

تسكن وحيدة في هذه الشقة المفروشة....!

أليس لها أهل؟!.. تبدو كالهاربة... مين بيعرف؟!

من يستطيع أن يكشف الحجب؟!

الظنون خيولُ تسابق الريح، والحقيقة بعيدة غائبة تحتاج إلى الصبر والخيال الجامح.. لذلك كلٌ حمل صنارته... ثم رماها.

من يصطاد أولاً هذه السمكة الطازجة؟....

وبدأت أراقبها بعد أن أثارت فضولي. وألهبت حماسي فهي تخرج صباحاً حاملة حقيبة سوداء كالتي يحملها رجال الأعمال وفي يدها بعض الأوراق ثم تعود مساء...

تمر... تعبر المدخل... وكأنها لا ترى أحداً بينما تلتقي النظرات على الشرفات وتتصاعد الهمسات ويغدو الكلام كخطاب الصم والبكم...

قلت.... ماذا يشغل بالها يا ترى!؟

نلتقي يومياً مع صباح الخير أو مساء الخير، وابتسامة تأخذ مساحة كبيرة من وجهي أحاول أن أرسمها بعناية كي تزداد وسامتي، وإشارةٍ من يدي توحي بالترحيب، هكذا مرّ معي لا أعرف في أي كتاب بأن الإشارة واللفظ شريكان، فالإشارة نعمَ العون للفظ ونعم الترجمان، وقد تنوب عن اللفظ.

وكلمة صباح الخير في هذا اليوم خرجت من القلب، فالكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان، ومع ذلك لم تعرني أي اهتمام.....

هـل أرفـع صـنارتي وأعـود خائـباً مـثل صـيادٍ فاشـل عاكسه الحظ لأيامٍ متتالية؟

لا... سـأحاول الـتفكير جـدياً بخطـطٍ للدخـول إلى عالمها الغامض، فإنها على ما يبدو من المهتمات بالثقافة، قد تكون مراسلة صحفية، كاتبة....؟....

ألم تدرك بعد كساد بضاعة الأدب، وعزوف الناس عن القراءة وأنّ ثلاثمائة مليون عربي لا يقرؤون بعدد ما تقرأه مدينة أوربية!!.

ابنة خالتي تكتب.... أو هي بالأحرى كاتبة، ظلّ كتابها أشهراً يرقد حزيناً في بيتنا تتناقله الأيدي من مكان لآخر وتمسح الغبار عنه دون أن تقرأه أمي، فبعد أن كتبت لها إهداء مميزاً نهضت أمي فغسلت يديها لأنها كانت مشغولة بعمل المكدوس، قبلتها وباركت لها ثم نسيت الموضوع تماماً، رغم أنها أنهت دراستها الجامعية منذ عشر سنوات وكانت تعتبر نفسها امرأة مثقفة.

حاولت أن أتناسى الموضوع كلياً، وأرضى بأن أكون صياداً فاشلاً، ولكنها كانت في كل يوم تشعل الغبار حولها وتحرك عجلات الألسنة، عندما تخرج صباحاً وتعود مساء لذلك سميتها الزوبعة، وغدوت أتمهلّ قليلاً حتى صرنا نخرج معاً وأنتظرها مساء في مكان ما... في الظل حتى يدخل موكبها فأدخل وراءها، وأغوص في تفاصيل

جسدها الجميل، المتناسق، الممتلئ قليلاً عند الردفين، وأمام المصعد أتصنع الانتظار ملهوفاً، وعندما ينحشر الناس في المصعد، وقد كتب في الداخل لستة أشخاص فقط، أحشر نفسي وراءها هكذا يجري تصريف الأمور كما أردتها، يتوقف المصعد، يخرج أشخاص ويدخل آخرون وأنا ممعن في الالتصاق بها، حتى أصبحنا كأننا شخص واحد.

في المصعد تبدأ الحكاية فأغدو إنساناً آخر، ذليلاً أمام شيطان رغباتي المجنونة، قد يحلو لك الاقتراب من النار لتتدفأ، لتحترق وهي لا ترى احتراقي، وهنا شممت رائحتها عن قرب، فدسست أنفي بين خصلات شعرها التي كانت تنفلت وترتمي بشكل عبثي، تتماوج ما بين البني والأشقر على كتفيها. بينما ضفتاها الرمليتان المحشوتان في بنطال الجينز تستنجدان بي حتى إني أكاد أسمع حفيفهما عندما تلامسان فخذي فتستوفز كل قطعة من جسدي، وتغمر خلاياي الرغبة الجارفة فأصعد نحو الرؤى...

( لو توقف المصعد لدقائق! لو أطفئت الأنوار!!)

ماذا كنت أفعل؟ فأنا البارحة كنت أشاهد بعض الأفلام عند رفاقي ابتلّ سروالي على أثرها، ثم عدت ليلاً

فسمعت بعض الهمسات والضحكات ناعمة مكتومة وأخرى صارخة، ثم وشوشات وهمس ناعم، وقفت أمام الباب أتنصت ثم تصبب مني عرقٌ بارد، لذلك أمضيت ليلتي أسبح في خيالات لا حدود لها مع الحور العين بعد أن صعدت إلى السماء بسلمٍ من ورق صنعته بيدي، وقد جربت أن أكتب قصة بعنوان " في المصعد " بعد هذا الاستنفار الصباحي الذي أصابني.

ومرّت الأيام مهرولة سريعة، لم تمهلني، وأنا بقيت مكاني، أراوح في مكاني أعيش مع محاولاتي، لا أحيد ولا أميل دون أن أحظى بالتفاتة ذات معنى أو استجابةٍ ما. فقلت بيأس: قد أكون قليل الجاذبية، ولكن الجميع يتحدثون عن وسامتي.

في هذه الليلة حطّ عليّ الأرق مثل طائر عملاق، فضاق صدري، وتقلبت كثيراً، تارة أعدّ الخطط للتعرف عليها والتقرب منها، وتارة أفكر بها وقد امتلأت حيرة وغرقت في كومةٍ من المشاعر المتناقضة، ثم تساءلت عن هذا الشوق الذي توهج في داخلي فجأة، هل أحببتها!!؟

أم هي رغبات تراودني فقط، وماذا لو رحلت! وأخذت معها كل ذلك الجمال، وسرقت مني هذا الربيع الذي نعمت به، إذ كانت تعانقني في صباحاتي وفي المساء أشعر بها بجواري، تحوم حولي وتتهادى كغيمة بيضاء.

ثم قررت أن أدخل عالمها المفعم بالجاذبية بأسلوب آخر كأن أعرّفها بنفسي، أو أرنّ الجرس وأطلب استعارة كتاب ولكنها قد تقول كل المكتبات حولك وفي متناول يديك.

فقط أريد أن أسمع صوتها... فجأة سمعت صوت الآخر وكنت أظن أنه رحل منذ مدة.

(ولكنّ الأمور ليست بهذا التعقيد يا صاحبي، إنها أبسط مما تظن، فهذه المرأةُ ليست لبوة بين قضبان من الحديد كغيرها، أما تراها حرة تحلق كالحمائم والعصافير!!؟

كأنك أنت السجين المعنّى بين تلك القضبان، مقيد بها في ليلك ونهارك، عيناك تائهتان فوق بركةٍ تموج وتتحرك (أحقاً ما تقول؟!!...)

في الصباح...

بعد أن استيقظت، خرجت فوراً إلى الشرفة، مازلت مشتت الذهن وأحتاج إلى هواءٍ منعش، لم يكن الشروق صافياً فالضباب والغيم حجبا الشمس، مما جعلني أزداد تكدراً.

ثم سمعت طقطقة.... نظرت للأسفل معقود اللسان وقد اعتراني وجومٌ وذهول...

( رحلت!!؟....)

من دون أن.....!!.

* * *

# 5

**( أميرة.....)**

**في الحيّ الغربي من المدينة، الحي السياحي الراقي، وفي الطابق الثاني.**

( وأنت يا حلوة الليلة إيش عندك؟)

هذا ما نطق به الشيخ أبو حيّان وهو يتأمل أميرة، وعيناه تنتقلان بين تفاصيل جسدها، من ساقيها البضّتين إلى ردفيها اللذين يهتزان بعدد خطواتها بين الغرف والممرات

الوقت هو السادسة مساء.

تدخل أميرة المكتب من الباب الخلفي، ثم تخرج من الباب الرئيسي امرأة أخرى هي (مدام أميرة)...

قال لها المدير: "الطبخة اليوم دسمة ديري بالك".

وهكذا خرجت بصحبة الشيخ السعودي إلى الشقة المطلوب تأجيرها، وكانت حسب ما تطلبه مهنتها قد أتقنت كل فنون الحديث ونالت بها شهادة عليا، كما حفظت بعض جمل المجاملات التي تقال بالفرنسية والإنكليزية ولبست ثوب الكياسة واللطف والغنج.

قالت له وهي تنتقل برشاقة تلفت الانتباه من غرفةٍ لأخرى، وتجتهد في الشرح كي يستأجر، وتنال عمولتها:

هذه غرفة النوم... جُددت هذا العام... المفارش تستبدل بأخرى، كله موجود هنا في الخزانة لتكون أكثر تماشياً مع روح العصر.

الصالون... كامل لا ينقصه شيء... التلفزيون... الفيديو.. المكيفات.. انظر... في كل غرفة، ولو أنك لا تحتاجها كثيراً فأيام الحرّ تأتي معدودة، الطابق جميل ومطلّ فوق هذه التلة يشرح النفس... تمرّ عليه النسائم نقية صافية كأنه خيمة من خيم البادية.

الخادمة... موجودة.. وهي تحت الطلب...

ثم سكتت قليلاً بعد أن كررت كل الجمل التي قالتها البارحة وقد أصبحت كالنشيد اليومي.

أما هو فكان يمشي وراءها واضعاً يديه في جيبي جلبابه الأبيض ينظر ويهز برأسه، فهو لم يبد إعجابه بشيء ولم يرفض شيئاً.

طلبت الكثير... مدّ يده إلى جيب جلابيته ورمى إليها برزمةٍ، ثم غط في النوم...

لقد غدت تعرف ما تريد، ولكنها كانت في كل يوم بعد أن تصبّ على جسدها وروحها أنهراً من الماء، ينتصب أمامها الميزان فتنزل الكفة إلى القاع لترى أن الخسران أكبر بكثير من الربح.

وقد تساءلت أكثر من مرة: لمَ لا تغير عملها وتعيش بين أطفالها بشخصية واحدة؟ وتترك صنعة التمثيل هذه التي أتقنتها، فهي في بعض الأحيان تشعر أنها تختنق في داخلها انتفاضة على كل شيء حولها، بعد أن يزداد القهر ويزداد الشعور بأن هذا الزمان قد أخذ منها كل شيء، فهي تصلي وحيدة، وتقوم وحيدة، وتتعشى وحيدة بعد أن ينام الصغار باكراً.

وهذا هو نهر العمر يجري.

أكان هذا صعباً...!! لا... ولكن ما تفعله قد يرضي نفسها، فتجد من يهتمّ بها، من ينظر إليها بإعجاب مبطنٍ بالشهوة، بعد أن خدعها زوجها والآخرون، وهي الآن جزءٌ من عملية خداعٍ أكبر منها بكثير تعيش النفاق والرياء بكل وجوهه وتسمياته وإن اختلفت، تغير وجوهها كما تغير شعرها المستعار وعينيها الخضراوين وثيابها المفصلة حسب آخر خطوط الموضة، وحسب الأبواب التي تدخل

وتخـرج مـنها تعـيش بـين عمـرين... بـين جـسرين ولكـن كلاهما متسربلان بالعتمة.

في قلبها نما حقد وأزهر، تشعّب وتشابك كالأحياء المرجانية يتمدد في شراييها، تكبته، يبقى في الأعماق وأحياناً تراه طبيعياً إذ مهما حاولت أن تستنهض في داخلها مشاعر الحب والإيمان يبقى شيء منه وقد تتآخى معه، فمن حق الخديج أن ينعم بالحياة.

عندما تعود إلى منزلها، تتحاشى الوقوف أمام المرآة، لا تريد أن ترى وجهها، عينيها خدّيها، في المرآة امرأة أخرى لا تعرفها، غارقة في الوحل، رجلاها تبحثان في القاع عن صخرة صلبة تقف عليها فلا تجد. وأحياناً لا تستطيع النظر في عيني أطفالها، فتضيق الدنيا بها ولكنها عندما تستفيق وتقول للأولاد: "يا الله إلى المدرسة" يهمس لها الصباح بشيء: ـ فتكبر الآمال وتبني قصوراً زاهية الألوان، رؤيتهم تلهب مشاعرها فرحاً، فيعود إليها شيء من صفاء النفس، وتتحول إلى ينبوعٍ حنان يتدفق لمسات حانية، لغة أليفة، ترحل المواجع والآهات تلتئم الجروح، ثم تستيقظ الروح مشرعة نوافذها لصباح جديد، قد تكون الأيام القادمة حافلة بالأسرار.

وتعود (أميرة)..... أميرة من دون كلمة مدام.

* * *

# 6

**( عصا مكسورة.....)**

**قبل أن أذهب إلى مقهى الأدباء مساء** قررت أن أغوص اليوم في بحر مملكتي.. مكتبتي.

فأنا منذ شهر دائم الهروب، ولكن طيفها يلاحقني ونظراتها تخترقني، خطاها تتبعني أينما حللت.

هو الحب إذاً...

الوقت يهرب مني وأنا لا أريد أن أمضي ساعاتٍ بل أيام في إعادة تنسيقها وترتيبها بعد أن أكلتها الفوضى والارتباك وعلاها الغبار، كتب مكدّسة لا تعرف القديم من الحديث، كتب النقد والرواية والقصة والشعر مجلات وجرائد، إهداءات الزملاء تركن في زاوية، بعضها قرئ والبعض الآخر ينتظر دوره بعتبٍ.

فـبدأت عملـي بـوجلٍ، فهـذا المكـان لـه قدسـيته وعظمته لأنها ثمرة الأيام وسحر الزمان، دائمة السقيا ولا تمـلُّ الـصحبة، وقـد طالعـتني الـيوم كواكـبها، تـرش عطرها المعرفي، فأقع في الخطيئة الشهية والممتعة.

* * *

غمرني طوفان الذكريات...

تنأى الرسوم ثم تقترب، بعضها مازال محتفظاً بجدته والبعض الآخر صار أطلالاً دارسة وأنا على وشك الزوال فهل أغمد سيفي وأستريح؟....

هـذه هـي كـتبي الجامعية، أخـذت أقلـب الـصفحات فأشـرقت بعض العناوين، أرقام... هواتف... حروف ملونة.. أسماء... مواعيد...

انتشيت وسرت دماء حمراء في جسدي..

ابتـسمت، ثـم هجعـت مـسترخياً أتقلـب علـى بـساط مـزركش من البياض الناصع والأحمر الوردي، والأصفر الفاقع والأسود..

ظللت إلى أن أمـسكت كـل الخـيوط بـيدي، هـذا هـو عمري... النهر الذي يجري، بتعرجاته والتواءاته واستواءاته.

* * *

تذكرت أول كتاب اشتريته: الأم " لمكسيم غوركي".

عندما وقفت في شارع الحلبوني أمام رفوف الكتب عيناي تقرأان العناوين، ويدي تعد ما في جيبي من نقود وضباب الحيرة يلفني، إلى أن أفرغت ما في جيبي، وعدت مشياً وأنا غير مصدق.

وهذه هي اليوم قلب العالم وفكره، ينعكس عليها ما يحصل فيه من خير وشر، من نزاعات وانهيارات، من تجمدٍ وانزلاقات، من سكون ومن ثورة... حتى صرعات الموضة مثل روايات الجنس الرائجة والرابحة في هذه الأيام.

إلى أن ضاقت بحملها...

بعض الكتب انزوت في ركن خلفي مهملة علاها الغبار وغطّى رداءها الملكي.. قد نرجع إليها كما يرجع الناس بين فترةٍ وأخرى فيقرؤون آنا كارنينا.... والشيخ والبحر.. وذهب مع الريح.. وبعض الكتب مازالت زاهية متباهية بجديدها. ولكنها على رأي ابن قتيبة.. الجديد سيصبح قديماً والقديم كان جديداً.

أما نزار قباني فيفسر ذلك بأسلوبه الخاص عندما قال:
(يتناسى البعض أن عنقود العنب سيصبح خلاً في يومٍ ما...)

ولكنه يبقى.. ما يتغير فيه نكهته فقط...

* * *

نظرت إليها بحبٍ ممزوج بالحيرة قبل البدء بعملية الفرز... ماذا أبقي....؟

ماذا أخبئ في المستودع....؟

ماذا أواري في الخلف؟...

الكتب الاشتراكية!..... التراث الماركسي الضخم!...

من يقرأها بعد انهيار المنظومة الاشتراكية وموت منظريها؟....

كتب التراث... من البيان والتبيين إلى زهر الآداب إلى الأغاني..

من يقرأ هذه الكتب الصعبة الآن؟!... فوقعت في حيص بيص.

نظرت إلي.. عتابها كان قاسياً قوياً كزخ المطر، وأنا المتضور عشقاً لها بكل ما فيها، قلت:

سأبقى في سجنها وأرمم أغلفتها دون أن أغير فيها شيئاً ليت السجون كلها أنوار معارف!!...

* * *

في الطريق إلى مقهى الأدباء كنت أذرع خريطة الوطن من الشرق إلى الغرب، في رحلةٍ استمرت دقائق، وأنا أتذكر ما رأيته البارحة وسمعته، أنّ المكتبة الوطنية في بغداد نهبت ثم أحرقت مرتين، تفحمت الجدران

والسقف ولم يبق من الكتب إلا أكوام من الرماد، واستخدمت لهذا الشأن مادة حارقة خاصة.

هذا هو هولاكو الجديد....

كما أحرقت مكتبة الأوقاف، ومكتبة المجمع العلمي العراقي...

وكأن حرق حضارة بلاد الرافدين وتراثها كان مخططاً له قبل ذلك بأعوام كثيرة...

ما فعلته الهمجية أرّق الملايين الذين مازالوا ينامون في العاشرة ويصحون في الساعة السابعة على صوت فيروز وهي تغني القدس لنا.

وها نحن سنجتمع الليلة لصياغة بيان وأنا أردد قول الشاعر بسخريةٍ:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه

وجاوزه إلى ما تستطيع

حرابٌ مؤلمة طعنتني في القفاء، مع تشاؤم مر المذاق. ما لبثت أن بصقته، ونظرت حولي أسرق شيئاً من الطاقة الكامنة في جذوع الأشجار وأوراقها المظلة المتكاتفة.

لسعني مساء تشرين ببرودته، فاستعجلت خطواتي، مرّت صبيةٌ حسناء، دفأتني عيناها المتقدتان، استوقفتني للحظات فوصلت مخموراً.

الكراسي الخشبية في أماكنها، تفوح منها رائحة التبغ والنارجيلة، حوافيها عرّاها الدهر، فبدت متآكلة بعض الشيء.

قلت في نفسي:

يبقى لهذا المكان بهجته وعطره الخاص، المتشكل من دفء الأحاديث وسخونتها، حميمية العواطف ونفورها في بعض الأحيان، لواعج الفكر، ملوحة الواقع.

* * *

النادل مصطفى يحمل سطله المعتاد، يرش الماء على أصص الورد فتفوح رائحته، وتمتزج مع رائحة التراب المندّى والرطوبة المنعشة الهاربة من هجير الظهيرة.

تسرق أذنه بعض الألفاظ، نتفاً من الأحاديث يحاول أن يفهمها، يربط العبارات مع بعضها، يركبها من جديد ولكنها تضيع منه.

يرش الماء مرة أخرى وهو يتمتم:

( لكل همومه)... ويعود للتفكير بنفسه فقد تجاوز الأربعين سنة ولم يفكر بعد بالبحث عن عروس، وكأنه سيمضي عمره وحيداً.

غدا هذا المقهى موطنه، وغدا هو جزءاً من المكان من خلاله يعرفون أحوال الطقس، وحركة تغير الرياح.

وقد يعطي رأيه بما يقولون ويفعلون، ولكن هذا حصل في مرّات قليلة جداً، فبعد تلك الأمسية وهو ينظف الطاولات من فناجين القهوة والشاي وأعقاب السجائر استوقفته بعض الكلمات وكان يقرأها الشاعر برهان.

وحيدٌ في براري شاسعة

هناك أقف

أنتظر مرور الغيم

فتذكر وحدته وحياته الراكدة. وكأن هذا الشاعر يتحدث عنه.

كان يراه مختلفاً عن الآخرين، فهو طويل نحيفٌ يقصُّ شعره بعناية، ويشذب شاربيه، ويرتدي دائماً ربطة عنق أنيقة، ومعطفاً طويلاً أسود يبدو وكأنه ينتمي إلى طبقةٍ أخرى...

هذا بالإضافة إلى تهذيبه ولباقته وإحساسه المرهف فعندما يتحدث أو يقرأ الشعر تذوب الكلمات بين شفتيه كقطعة السكر.

وهذا هو يجلس متكئاً وغليونه في يده، وبحركة آلية ينظر فيه، ثم يشعل عود ثقاب... يسعل قبل أن يتوهج التبغ، يسحب منه ثم يسعل ثانية وكأنه يعيش طقساً من الطقوس التي اعتادها.

يتابع حديثه ثم تدور المناقشات...

ـ هل القومية العربية تحتاج إلى كل تلك الفلسفات والشروحات أم أنها بديهية من البديهيات ونحن نملك كل مقوماتها.

ـ نعم تحتاج إلى ترسيخ مفهومها، حتى النخيل في أيام الجفاف يحتاج إلى سقاية.

ـ علينا أن نعمّق أولاً مفهوم المواطنة.

ـ للآن لم نأخذ اعترافاً عالمياً بقوميتنا أما العالم فيعترف بطائفيتنا، بإقليميتنا، بعصبياتنا فقط.

ـ العالم لا يعترف بنا، إلا إذا اعترفنا بأنفسنا وقدراتنا.

يسعل الشاعر برهان مرة أخرى وينظر في ساعته..

( لم نصل بعد لشيء)

يقول بشيء من العصبية:

مصطفى وزع الشاي... لا نريد أن نشعّب الموضوعات، أهم شيء الآن بيان شجبٍ وإدانة لما يحصل، لندع قضايا المجتمع والسياسة والقضايا الفكرية إلى جلسة أخرى.

ـ لماذا؟! عندما تتلاقح الأفكار تخصب.

ـ نعم.. نعم....

ـ سنكتب نحن العرب...

ـ نحن لسنا كل العرب..

ـ ولكننا نمثلهم على نحو إيجابي.

ـ نكتب ( نحن الأدباء العرب المجتمعين في هذا المكان...)

ـ وماذا عن الأدباء الآخرين في شرق الوطن ومغربه... ماذا قالوا؟!!..

ـ كلّ في واديه يحفر مجراه.

ـ لننه هذا البيان ونكتبه بلغة بسيطة واضحة يفهمها الجميع..

المعلم سيف هكذا ينادونه دون إضافات، فاسمه يكفي ليدل على مخبره..

قال بلهجة حادة:

كأننا نبسط كل شيء، ونتهاون في كل شيء لنكتب كما تعودنا... ألا يكفينا اللغات الوافدة التي تتخذ عدة أشكال ورسائل المحمول التي يتبادلها الشباب وكلها بالعامية كأننا نسعى لقتل لغتنا.

إنّ أزمة اللغة من أزمة الثقافة، أزمة العصر، فالحياة اليوم تطرح أسئلتها الخاصة وقد تكون مثل الغثاء،

ران صمت كثيف.. فالمدينة نامت، والشوارع بعد أن امتصت حركة الداخلين إليها، لفظتهم مرة أخرى، لم يعد أحد راغباً في الكلام.

جملة أخيرة أضافها المعلم سيف.

الساعة الآن قد جاوزت الواحدة، ومدير المقهى سيغلق بابه، فإذا خالفته الشرطة من يدفع المخالفة؟!!...

* * *

# حائـط من ورق

**وأنت تخوض حروبك، فكر بغيرك**
**[ لا تنس من يطلبون السلام ]**
**وأنت تحرّر نفسك بالاستعارة فكر بغيرك**
**[ من فقدوا حقهم في الكلام ]**

**محمود درويش**

على ضوء شمعة تشق العتمة بسيوفٍ من نار أخذ يكتب رسائله، فكتب رسالة حمراء وزرقاء وبيضاء، استهلك كل الألوان وملأ كل الصفحات ثم طفطفت الكلمات وسالت.

كان يريد الكتابة أكثر ولكن الملك أصدر فرماناً منع فيه تداول الأوراق.

* * *

ارتاح الحراس من عناء نهار متعب وشاق فتمدد أحدهم قائلاً:

آه أفضل شيء في الحياة النوم، أن تنام وتدع الآخرين ينامون.

خيالات الجان ارتسمت على الجدران قرونها ارتفعت للأعلى.

( الآن كل شيء آمن) بعدها راح في إغفاءةٍ عميقة.

سمع عبد الله صرير البوابات الضخمة، وطقطقة الأقفال الصدئة وبعدها شخير الحرس فتناول الورقة الحمراء وأخذ يكتب.

( وجهك يا حبيبتي قمرٌ من البلور، يمرق فوق الحائط والأسوار، يضيء عالمي ويحّول ليلي إلى صباح.

تمسّكي بي لنعبر معاً إلى العالم الجميل فمواسم الغلال القادمة ستكون طافحة بالدماء سأمحو كلمات جبيني، وأهرب من قدري فاقتربي مني أكثر، قبليني وداعبيني لأحيا فأنا لست إلا طفلا يحبو إلى صدر أمه.

* * *

كل شيء حولي صقيع، ربيعي خريف دائم. ماتت فيه كل الشهوة.

البارحة حلمت بك، في الحلم بكيت كثيراً، بصعوبة أفقت على صراخ أمي وهي تقول:

هل رجعت إليك الأحلام؟!

قلت لها: أنا أتحداهم بالحلم، لا يستطيعون نزعه من هنا.... من رأسي.

قالت:

ولكن الحلم غير الواقع.

ـ الحلم لا ينسينا الواقع، فالحلم مزيج عجيب خلطة سحرية فيها كل الأزمنة.

قالت:

سيصلون إلى عمق أحلامنا.

أنا يا حبيبتي أقتات الأحلام، هي زادي ومزادي، في الحلم أركب زورقي وأتجوّل كما أشتهي أعبر الأسلاك إلى كرم جدي... هناك حيث تركت أرجوحتي... وحيدة.

اقتربي مني أكثر، حتى أشمّ فيك رائحة الزعتر البري والقمح الأخضر.

أتعلمين؟.....

لكل بلدٍ روائحه، ونحن نحملها معنا أينما نذهب، كما أنّ لكل بلدٍ قمره وشمسه. مخطئ من يقول أن هناك قمراً واحداً، أما ترين أن قمرنا يختلف عن الأقمار الأخرى، وشمسنا أكثر دفئاً وحناناً من الشموس الأخرى!!.

لا أدري... فإن لم تصلك رسالتي يكون أحدهم قد أطلق رصاصة على حمامتي الزاجلة فالرصاص يتكاثف في سمائنا أكثر من الغيوم الماطرة.

أبي قبل أن يقنص، رأيته مرتدياً ثوباً أبيض حريرياً يوزع قطع الحلوى على الأطفال، ثم وقف وتطلع للأعلى اصطدم نظره بالحائط، ولكنه عندما رأى أسراب السنونو تحلق وتخرج تطاولت قامته حتى غدت أطول من الحائط، فأبى أن يرجع.

لونت دماؤه الأرض وسالت مع الأودية التي تنزل غزيرة في فصل الشتاء، وظلت تسيل زمناً.

النساء مزقن كفنه، كل واحدةٍ وضعت شريحة في عبّها، ففي موته نبوءة قد تفتح كوة من نور في الزمن الآتي، وظلت الأرض شرياناً يغذي جسده.

فقبل موته بيومين، نادته الأرض ليلاً، ممشوقة تنتظر حبيبها، ظل العاشق يتقلب في الفراش وعيناه على النافذة....

طال الليل أكثر والليل يطول في انتظار اللقاءات الحميمية وعندما انشقَّ الفجر نهض، وضع زوادته مع زق الماء وأدار التراكتور. قالت أمي له:

إلى أين؟ هل ستفلح الصخر!؟ أرضنا تحولت إلى صخور إسمنتية.

ـ على الأقل سأنكش تحت الشجر، اشتاقت الأرض للفأس، ألا تعلمين إنها تتنفس من خلاله.

ـ الأشجار صارت حطباً.

ـ ولكنها باقية، الريح والجفاف وحرارة الشمس لن تهزمها.

في نهاية الطريق توقف، ونظر حوله إلى الشمال والجنوب... والشرق... والغرب.

( أما من مخرج؟)

* * *

حلّ صيفٌ حارٌ ولاهب، كل شيءٍ تراخى وتلاشى إلا يده... مازالت قبضته قوية، ما إن يأتي تشرين حتى يبدأ عمله من جديد ويزرع أشجاراً أخرى.

صحا باكراً، أدار التراكتور، وغادر الزقاق، التقاه أحد الجيران و صبّح عليه وهو في ذهول مسائلاً نفسه إلى أين....!!

قال له.... أهرب من الذباب، هناك الصفاء والنقاء والطهر.

في الطريق أحسّ بالبرد، اقشعرّ جسده فأخرج عباءته وتدثر بها وهو يقول:

( ستمطر هذا اليوم، علي أن أحفر قناة في التلة الشرقية كيلا تنجرف التربة).

في هذه الساعات غابت الشمس نهائياً في وسط الغيوم التي أنزلت حمولتها الغزيرة، أخذ يسرع...

إلى أن وصل للحائط....

* * *

سمعتُ (عارف) يقول:

مظاهرة اليوم ليست ككل المظاهرات فالقوات الإسرائيلية تحاصر بقوة، تطلق رصاصها على طيور السماء، ولكن الطيور البيضاء والرمادية مازالت ترفرف، حتى الحمام مازال يقف صباحاً على النافذة.

ودّعت الأم عارفاً وصديقه، مشت معهما إلى البوابة الخارجية وهي تقرأ آيات القرآن وتدعو لهما (يا رب تفرجها... وتفرجها على كل الأمم والعباد الذين يعانون مثلنا.. شيل عنهم الحمل يا رب).

ومن أجل أن تقتل الوقت شغلت نفسها بالأعمال اليومية... تدخل المطبخ.. تخرج إلى أرض الدار... تدخل مرة أخرى.. الكهرباء مقطوعة منذ الصباح لا تعرف شيئاً من الأخبار وكأنها خارج العالم...

نادت الأطفال ووضعت على الصينية صحني الزيت والزعتر... و.... قطعاً من الخيار... والخبز. رؤيتهم وهم يتعاركون حول الطعام، تبعد عنها شيئاً من القلق.

(لعاد... كثير تأخروا... ويش صار لهم!؟)، كانت تحاكي نفسها....

مازال ذهنها مشوشاً، ساعات النهار تمشي ببطء، ثقيلة كالرصاص، حتى الزقاق خالٍ من الأطفال الذين يكونون في العادة هواتف نقالة.

قالت: ها هم يركضون.

أخذ الزقاق يعج بالناس، عادت إليه الحركة عند العصر ركض أحد الأطفال باتجاهها... خالتي... خالتي... رجع عارف.

حضنته بالدموع وهي تقول: الحمد لله على السلامة

ثم تركته فجأة....

وين صديقك نضال؟!.. قال:

أصيب بجراح في كتفه... بس بخير.

تركته قبل أن يكمل عبارته وركضت مهرولة إلى المستوصف..

قال عارف:

ويش صار!!.... كأنها لم تفرح لعودتي..

* * *

غطّ أحد الحراس في النوم، وارتفع شخيره، تتقدم فأرة رمادية، في البداية تتوجس خوفاً، حذاؤه العالي ينتصب أمامها لا تستطيع أن تتسلقه ولو استخدمت ذيلها حبلاً فأخذت تدور حوله... تنط للأعلى... وتعضه، تتمسّح به، تقترب تارة، وتبتعد أخرى وكأنها تريد أن تستكشفه، ثم وجدت طريقها... فدخلت تطايرت الرصاصات في كل اتجاه، خرقت كل الأمكنة، ثم دقت الأجراس، كثافة الرعب غطت كل شيء.

* * *

صحا الملك شهريار، وكانت شهرزاد قد أسكرته بلياليها الملاح وحكاياتها، فتح عينيه على الجلبة والضوضاء، ثم نام على زندها الغض يهزه الشوق لانقضاء النهار.

* * *

**إنها ليلة العرس بعد انتظار..**

فابنك اليتيم كبر كأولاد الحكايا، وغدت قامته أطول من الجدار.

تسلل الفرح خجولاً، ودخل من شقوق حائط الإسمنت فشربه الجميع نبيذاً معتقاً، حتى (أبو سعيد) ابن الثمانين ينتشي ويرقّص عصاه وقدميه على وقع الدربكة، إلا أنه كان بين لحظة وأخرى، يلمُّ بباطن كفه دمعة تنحدر ثم يغيب لدقائق... يعيش بين ضباب الذكريات وهو يحاول أن يتلمّس طريقه في الظلام، ينام في أحد المقابر وعندما يصحو يأخذ الطريق إلى قريته، فلا يجد قرية ولا أهلاً فينتقل إلى قريةٍ أخرى وأخرى....

ثم استحال إلى جمرةٍ من الذكريات، كلما حركتها ازدادت توهجاً..

يقول: ( ما زالوا كما كانوا.. الفرح للجميع)

ابتسم ابتسامة رضى، ونظر للسماء الغائمة قائلاً:

ستمطر... اليوم...

ولكنَّ السماء أمطرت شيئاً آخر

رصاصاً وقذائف...

* * *

والشمعة قلب يذوب لابدّ أن تنتهي، وهي كقلب عمته (جورجيت) التي يكتب لها الآن.

هذه المرأة الجميلة، زهرة الشوك الليلكية التي أيقظها الندى فتفتحت في غفلة عن العيون،

من ستختار جورجيت من شباب القرية؟!؟، لقد اختارت (زهير الحسن) وتركت للباقين الحسرات.

* * *

عندما ازداد الحصار فتكاً سرق كل المسرّات وأصابع العتمة الفاحشة التهمت ما بقي من نور.

ابنك في هذه الليلة دوام البكاء، فوقعت في حيرة قاتلة سددت أذنيك ولكن الطفل لم يسكت، صدرك المتكوّر كان مثل نبع دافق مثل شلال، ما باله اليوم قد يبست عصائره، وجفت أوديته؟!

غادرته السحب الراكضة إلى البعيد ورحلت معها النبوءات.

أهناك أكثر من سبع سنين عجاف؟!

لا غنى عن الحليب، بحثتِ في جوانب البيت في أرحام الأمكنة، عند الجارات لم تجدي شيئاً.

صوت موال حزين يندب احتضار المدينة. وكان آخر موال يسمعه الآخرون بعدها يبست المواويل في الحنجرة.

* * *

البكاء يصل إليك... ويمرّ الوقت بطيئاً سريعاً دون جدوى.... لا أحد يصل ولا أحد يغادر في النهاية. الصمت باحة من الشكوى تفرش خطواتها ويتسع مداها أكثر، والحائط يزداد علواً. وقامتك تضمر... ويستمر الصراخ عليك أن تفعل المستحيل... والمستحيل يعني الموت....

* * *

كان الشهر كانون الثاني، الصقيع غلّف وجوه الحجارة وزوايا الجدران بالحّوارىّ وهي تبحث في زوايا البيت عن كل شيء فلم تجد إلا القلق.

( وبعدين... وين راح)

ثم أتاها الصوت من الخارج مخترقاً ما حولها من صوت.. (مات جوز جورجيت... انقتل وهو يحاول أن يتسلق الجدار).

حملت ابنها وركضت مع الراكضين... بعضهم أبعدها.. ثم تجاوزوها....

قالت لهم.... إنها كانت عينه وروحه... لم يسمعها أحد...

وكانت آخر مرة رأته فيها.. ملفوفاً بالعلم وبجانبه علبة حليب.... عندما مروا به لم تكن إلا الريح القاسية تمدُّ ألسنة الشوك وتحمل نواح النسوة وولولتهنّ بعيداً...

* * *

آه يا جورجيت!! يا وردة الشوك الليلكية التي أدماها الصقيع، لم بقيت الشاهدة الوحيدة؟!

قطة مشرّدة تبحث عن مأوى تحت جدار مهدّم... معزوفة حزينة يعزفها راع في مكان ما... لا يسمعها أحد لقد عشت كل التجارب... ولكن أهمها تجربة خروج الروح من الجسد.

وبكيت... بكيت كثيراً... سيدنا آدم فقط تفوق عليك بالبكاء بعد أن أخرج من جنته.

* * *

وأصبحت ترينهما فراشتين تحطان معاً على النافذة وأحياناً حمامتين تأتيان معاً ثم ترحلان.

وغدوتِ تضعين لهما الحب يومياً... وتنتظرين حتى تحول قلبك إلى عشّ حمائم، بعد أن أصبحت خارج إطار الزمان والمكان تسدّين الرمق ببعض لقيمات الذكرى مازالت تتوقد بلهيب الحزن المتجدد.

* * *

الشاهدة جورجيت غدا مكانها معروفاً للجميع تجلس أمام بيتها على مصطبة بنيت من عدد من " البلوكات" المكسرة.

غدا عالمها يعّج بالذكريات والأحداث والتصورات والتهيؤات، ما يشغلها الآن، بداية الخلق والحياة... نهاية الحياة.....بداية حياة، يمرّ الشتاء والصيف وهي جالسة على مصطبتها تنكش التراب بعصاها.

يقول لها أحدهم عند المساء:

ادخلي فالبرد قارس... والريح... من تنتظرين؟...

ـ فترد بصوت خافت: ( أنتظر مرور أحد الأنبياء).

* * *

مازالت الفأرة الرمادية تحاول الخروج، لم تيأس، تروح وتجيء، وتنط وتبحث إلى أن خرجت من أحد الشقوق. قال عبد الله متحسراً... بعد أن أنهى كتابة كل رسائله...

لو كنت فأراً!!

* * *

ثم انتهت الحكاية مثل كل الحكايات نهاية غامضة تحيط بها الأسرار.

فالملك شهريار بعد أن عاشر كل نساء المدينة وغلمانها، ورحلت شهرزاد بعد أن شلّ لسانها وأهلك جسدها، أخذ يعاني من الخواء والاكتئاب، جاء الحكيم فأخرج له قلبه ووضعه على الطاولة أمامه.

نظر الملك متأففاً إلى تلك الكتلة اللحمية السوداء فخرج مهرولاً... ثم أصيب بالجنون.

* * *

# أعمدة للحب

# همسات

تسيل الكلمات على شفتيها ثم تجف... مازالت تلهث وتشعر بنشفان في الحلق بئرٌ جفت كل حوافيه، تقف وتشرب الماء.... ثم تشرب أكثر، تتذكر شيئاً.

هل تناولت أدوية المساء؟ لديها تتعدد الأدواء من السكري إلى القلب إلى الضغط.

تقول: ( أظنني أخذته والحبة التي تقسم إلى نصفين كذلك قسمتها....)

ثم تجلس ساهمة على كرسيها، تتأمل وردتها الجورية هناك في زاوية الحديقة... لا تعرف كلما نظرت إليها استغرقت أكثر، إذ ترى فيها مسافة من عمرها فما زالت تختزن بين وريقاتها الخضراء وأسوقها شفيف الأمنيات وأسرار الهوى ودفء الأحلام الماضية.

مـا أحـبها إلى قلـبها..!!.. هالـة مـن الـود والهمـسات الناعمة تجمعهما امتدت جذوره عميقةعلى مرّ السنين في هذا المكان، تتساءل بحزن:

لماذا اليوم أعناقها ذابلة، ونظرتها كابية أين تلك النضارة؟! كانت مازالت تتذكر... كيف تشرئب ورداتها للأعلى وتتفتح عندما تستقبل الصباحات الندية في فصل الربيع، فتنفح القلوب حولها وتلبس أردية الشباب والفرح.

قد تسترخي أحياناً على خدّ المساء، إذ تكون شمس الظهيرة قد لفحتها بقسوة، وعندما يغازلها الصباح في اليوم الثاني.. تتدفق الحياة في عروقها من جديد.

لقد تآلفت مع من حولها، لم يفقدها نضارتها شيء فكانت صديقة للصقيع للشتاء ولثلوجه، حتى عندما يجعل منها كوكبةً بيضاء فما إن تشرق الشمس ويذوب الثلج حتى تشعّ من جديد.

فماذا حلّ بها اليوم؟! هل تستطيع أن تهديها عُمراً كما كانت تهدي للآخرين الجمال والتألق والعبير الأخاذ.

نهضت بصعوبة وغادرت كرسيها بخطوات بطيئة.. وبيدها المرتجفة نكشت التراب حولها، وأزالت بعض الأغصان التي شاخت ثم اقتلعت بعض الأعشاب الضارة من حولها وانتظرت عدة أيام.....

لا شيء تغير.....

مازالت أوراقها تميل إلى الاصفرار، وكأن شروشها بدأت تجف وتضمر وشراييها تقسو شيئاً فشيئاً... قالت في نفسها: قد تنقصها التغذية فهي منذ مدة طويلة لم تضع لها الأسمدة... فهي تحتاج إلى الفيتامينات مثل كل كائن حيّ وهذا ما فعلته.....

وماذا بعد....؟! كيف تعيد الحياة لهذه الوردة التي أحبتها وشاركتها السّراء والضراء.

لقد يئست منها في هذا اليوم وأصابها الضجر، ونظرت نظرة صفراء إلى كل ما حولها، فاخترق الحزن قلبها وازدادت همومها ثقلاً، فرجعت إلى كرسيها، وتدثرت بشرشفها الصوفي تنتظر موعد زيارة الطبيب، شكت له كل آلامها الجسدية المستمرة والنفسية. ثم حكت له طويلاً عن وردتها وعما أصابها، لم يقل شيئاً... بل نظر إليها نظرةً حانيةً وابتسم... لأنه كان يشعر أن زيارته هذه قد تكون الأخيرة..

# بطاقة شعر

لم يكن في هذا الصباح كعهدها به، شيء ما اختلف.

وقد أحسّته منذ النظرة الأولى ففشي الحزن والحيرة والخوف من الآتي عينيها السماويتين.

ورغم أنهما شربا القهوة معاً كما تعوّدا، إلا أنه لم يكن معها، كان مثل إنسانٍ يتأهب للرحيل، تساءلت بصمت:

ما به؟!....

يقف أمام المرآة ويدندن، ثم يعيد... ويكرر، يسرّح الكلمات... يعيد التفكير بها ثم ينضّدها من جديد، بألوان وأشكال أخرى.

* * *

غرزت الغيرة نصلها الحاد، وعصفت بها رياح الشك وذرّت بقسوة ذلك الهدوء والأمن اللذين كانت تنعم بهما وتحسد عليهما، ولم يبق لهما أثرٌ.

وغدت متأكدة تماماً أن ذلك الحب الذي عاشته فيما مضى كان وهماً، اخترعته وتصورته لتغطي واقعاً مزرياً وهذا هو قد اندفع الآن إلى السطح رماداً بركانياً غطّى كل شيء.

وظلّ السؤال المحيّر... ( ماذا يقول؟... ما الذي يشغل باله؟!!).

حتى وهو يحلق ذقنه أمام المرآة، يهمهم به وهذه المرآة التي أمامه قد غيبتها وكأنها تحولت إلى وهم أو خيال.

يرى فيها امرأة أخرى، تبتسم له فيناجيها ويهمس لها بلغة غير مفهومة..

تساءلت.. وما أكثر الأسئلة والنهار ما زال في أوله والفضول يستبدّ بها ويقضمها شيئاً فشيئاً، هل هي أبيات من الشعر؟! ولكنه ليس بشاعرٍ.

حقاً هو يحب الشعر ويتذوقه... ولكن... هل هي أغنية لمطربة سرقت من العقل والروح وهي ماذا ينقصها؟.. لا شيء مما يهواه الرجال.

لذلك ستحاول أن تسرق بعض الكلمات وتنزل إلى جارتها. كان وجهها مصفراً حتى المرآة أنكرتها فوضعت كثيراً من حمرة الخدود... ولن تفوّت الأبراج في هذا اليوم... ماذا يقول الفلك؟ ستدقق في برجه أولاً.

( تعيش في هذه الأيام لحظات حبٍ متوهجة احرص على مشاعر الحبيب)

جارتها أكدّت لها هواجسها عندما أرتها بأم عينها الحية التي تلتف حول الفنجان وتصل إلى المشرب قائلة. (ديري بالك.... هناك من.... قالت بلهفة.. شو... كملي... بدي أعرف مين..!!

تظهر لك المحبة بينما تخفي المكر والدهاء).

سكتت لحظات ثم قالت بحسرة..

الفنجان أكدّ كل شيء، ليتها ظلت هواجس، كيف سيكون عيد ميلادها غداً... سيكون بداية النهاية وبداية لمرحلة أخرى بدأت خطوطها السوداء تظهر ظلالها اليوم...

لم يختلف المساء عن الصباح سوى أن ظلمته ازدادت كثافة وعمقاً، وتحول صدرها إلى كتلة من لهب فحاولت أن تلملم أجزاء روحها المبعثرة المشتتة وتأخذ جرعة أكبر من الصبر، ستنتظر الغد... قد يحمل لها شيئاً..

صباحاً سيبوح لها بكل شيء لا تستطيع أن تنتظر أكثر... ولكن الغد لم يأت.

عندما حلَّ مساء اليوم التالي وكشفت السماء عن لألائها.

دخل والورد في يده، وابتسامة ساحرة تغطي وجهه.. كل وجهه.

(كل عام وأنت حبيبتي.. هذه المقطوعة الشعرية بحروفها بكلماتها بروائحها العطرة هديةٌ لك، فأنا منذ يومين كنت أبحث عن عجز البيت الأخير وقد وجدته...

* * *

# إنها هي

تتسلل حزمة الضوء، وتزحف ببطءٍ من أعلى خشبة المسرح.. إلى الحضور... إلى الزاوية التي تجلس فيها فيضيء وجهها القاعة ثم يضيء روحه، نقلت إليه حزمة الضوء جمالها واندهاشها، كانت مأخوذة بالعزف وهو مأخوذ بآلته، يضعها بحنوٍ على كتفه ويلصق خدّه بها فيذوبان معاً، بينما يده اليمنى تماحك الأوتار وتراقصها يسافر عبر الصحارى فتسمع صفير الخواء اللامحدود هسيس الرمل، قلق العشاق، شوق التائهين، ثم زفراتٍ موجعة لشيء لم يزل يبحث عنه، جوع لشيء آخر، رغم أن حبيبته لا تبخل عليه بشيء كل يومٍ تعطيه المزيد ومازال في بدء الاكتشاف.

* * *

تحوم حزمة الضوء.. تضيع ثم تنجذب إليها، فتنهمر على وجهها مرة أخرى

( يا لعينيها...!!)

تشرد الأوتار وترقص، يتمايل معها، وكأن شيطانه قد حضر الآن، فمشى، مشى إليها ووقف.

أصبحا وحيدين... لاحظت ذلك فارتبكت لم يعزف لها أحدٌ من قبل.

قال: لو كنت شاعراً!! يا ترى أيهما أسرع في الوصول إلى قلبها النغمة أم الكلمة؟!

- الكلمة أكثر وضوحاً.
- النغمة أكثر إيحاء.
- لفظ الحرف له طعمٌ.
- النغمة أكثر نفاذاً إلى الحواس كلها.

أخذ الناس ينظرون باستغراب، وقد تلاحم العقربان ودقت الساعة، تقلصت حزمة الضوء وانكمشت، وقف الناس..

مازالا وحيدين... مواكب الأزهار تعبر إليها تمدّ إليها ظلال العشق، يتصاعد الوجد وتحلق النغمات فتغتسل القاعة بماء الإلهام والإبداع، ثم تأتي لحظة الكشف والتجلي.

تقف وتصفق بحرارة. " نعم.. إنها هي... الآن... العالم كله ينحني".

# القطة لوسي

في ظل شجرة الياسمين، وعلى التربة الحمراء الرطبة المتبقية ما بين البلاط وبركة المياه تمددت القطة " لوسي " ـ كما تسميها سيدتها ـ فشعرت ببرودة لذيذة منعشة استرخت أكثر، فبسطت يديها للأمام ورجليها للخلف فبدا بطنها بفروه الناعم ناصع البياض.

بعدها غطت في نوم عميق.... امتد لساعات.

راودتها في تلك الأثناء أحلام كثيرة، متنوعة مدهشة... منها.. أنها التقطت تلك الفراشة الملوّنة التي عذبتها طويلاً، كثيراً ما لاحقتها، وقفزت في الهواء بأقصى قوتها لتفوز بها، ولكن دون جدوى.. وها هي تلتقطها الآن وتبتلعها سريعاً.

... ثم حلمٌ آخر... سال له لعابها رأت مرة أخرى ذلك القط الذي لمحته من فتحة البوابة الخشبية، نظر إليها وقد

استغرب كيف لم يعرفها، ولم يلتقِ بها من قبل لا على السطح ولا على جذوع الأشجار.

قال وهو يتلمظ: كم هي نظيفة وجميلة... وخجولة...

بعد أن تناولت سيدتها الحليب من البائع وهي تتثائب أغلقت البوابة بحدة، فأحسّ بالظلام يهبط فجأة، ظل ينتظر أمام البوابة ولكنها لم تخرج...

أما هي... فقد قفزت على البوابة وخمشتها بيديها ورجليها حتى أحدثت فيها خدوشاً واضحة ثم نزلت وأخذت تلعق الحليب إلى أن امتلأ بطنها.

مشت بخطوات بطيئة واسترخت مرة أخرى فوق التربة الحمراء الندية، تتقلب من جديد من جهةٍ لأخرى.

( عاد للأشياء سكونها وجمودها وعاد الملل لا أحد يذهب... لا أحد يعود....)

في هذا البيت الذي يأخذ المساحة الشرقية المتطرفة من الحارة القديمة.

ثم نهضت وحاولت أن تصعد إلى أعلى غصنٍ وتقفز إلى سطوح الجيران ولكنها عجزت فرجعت خائبةً تبحث عن الفراشة التي رأتها في حلمها....

(أين هي؟! حتى الفراشات ضلت طريقها).. ولكن كيف نسيت القطة التي تطلّ أحياناً من عمق البركة؟! وها هي تدور حولها تمدُّ رقبتها للأمام وتبحث عنها...

لعبا معاً وجهاً لوجه والقطة لوسي تختفي وتظهر تمرّ بخفة ورشاقة بين أصص الجوري والقرنفل ولكن إلى متى تبقى صديقتها حبيسة بين جدران هذه البركة... لتنزل إليها...

مدّت يديها لها ثم غطست في الماء تبحث عنها بحثت في كل زواياها، لم تجد شيئاً فخرجت يائسة تنتفض وتقفز على غير هدى، فتسقط أصص الورد وتفرش الأرض بالتراب والأغصان المكسرة.. ثم تترك كل شيء وتهرب لتختبئ في حضن سيدتها.

تستفيق سيدتها وتلاحق بعينها ذبابةً دخلت عنوةً من منخل النافذة، ثم تعود للنوم.

تستفيق مرة أخرى عند الساعة الثالثة ظهراً تمسّد ظهر قطتها بحنان تجلس في السرير ساهمة وهي تنتظر بسأمٍ موعدها مع الكوافير....

# ليالي امطر النافذة

ألا تتذكر.....؟!

كم كنا نحب المطر! نمشي حتى نبتلّ ، ثم أختبئ في معطفك فتدفئني بروحك وعينيك ويديك.

ورغم أن أيام المطر كانت طويلة، إلا أننا لم نملّ ، آدم وحواء تحيط بهما السكينة والطمأنينة.

قد تطردنا الشمس من جنتنا لأيام.... نخرج ثم نعود إليها ، نقطف الجنى المعلل كما سمّاه الشاعر امرؤ القيس يحضننا الضباب والغيم وكأننا تائهان في زورق في عرض اليمّ

* * *

وتقرأ لي ما كتب عن العشق والحب، إذ طالما رددت شعراً لنزار.. وما أكثر ما حفظته من دواوينه

كنا.....

إذا ما عصف العشق بنا

نخبئ النجوم في جيوبنا
ونخرج الليل من النهار
وكان فمي يقطف من ثغرك ياقوتاً ، وبرقوقاً ، وجلنار
كانت يدي تلمّ عن خصرك أكواماً من اللؤلؤ والمحار "

* * *

ثم ما قاله الفلاسفة القدماء عن الحب... إذ من المستحيل أن نعرف متى كان أول لقاء؟ وكيف تولّدت الرغبة الأولى بالامتلاك وكنت دائماً تقول: إن الحبّ شيء جميل.

وهذا ما أكده الفلاسفة القدماء، ففي حوارٍ بين سقراط وآغاتون

" يقول آغاتون:

الحب شيء جميل.... والمحبُّ يرغب في الشيء الذي يحبه.... والحبُّ هو حبٌ لما نرغب فيه ولا نمتلكه.....

يرد سقراط: الحرمان هو الدافع للحب..... الأشياء القبيحة لا يمكن أن تكون موضوعاً للحب... إذن فلا حب إلا لما هو جميلٌ وخير.... "

ثم تتأملني وتقول:

وأنتِ يا حبيبتي تملكين كل ذلك.....

* * *

كل هذا لم يدم إلا لسنتين فقط، في السقف فتحت كوّةٌ هبطت منها كل الأمراض والعلل دفعة واحدة ونفذت إلى عظامك، كأننا وفي بعض الأحيان عاجزون أمام أقدارنا.

مازال رذاذ المطر يتساقط على الأوراق الخضراء حول قبرك، فتهتز اهتزازاً خفيفاً وتنحني، يتجمع الماء بين القبور، ثم يسيل ويتسرب إلى الأماكن المنخفضة.

فأين تسربت روحك؟!

* * *

هل تسكن الآن إلى جانب باريها أبد الدهر؟ أم هي في برزخ هائمة تنتظر يوم القيامة والحساب؟... أم تقمصت جسداً آخر؟.....

فكما يرتدي الإنسان ثياباً جديدة، ويلقي بثيابه البالية بعيداً، هكذا ترتدي النفس أجساداً مادّية جديدة وتلقي الأجساد البالية جانباً.

كيف؟!.....

يقولون إن جوهر النفس هو الذي ينتقل بين كوكب وآخر في زمن معدوم فهل ألقيت جسدك البالي الذي أنهكه المرض قبل الأوان لتحل نفسك في ثوبٍ جديد؟

* * *

لا أعرف كيف كانت حياتك الماضية إن كان هناك حياة... فيها الكثير من الخير أو الشر فعلى رأي بوذا... الإنسان يحصد ما يبذر في حياته السابقة.

وماذا تقول فلسفة الكارما الهندية والتي تعني نتائج الأعمال؟!!

لقد شغلت نفسي كثيراً، بقضية الحساب والثواب والعقاب، ولكني الآن سأدير وجهي للموت... للظلام وأستقبل نوراً آخر، لا تشوبه شائبة، ولا تكثر حوله الأسئلة والألغاز.

أجل إنها الحياة..... سأقول لك وداعاً....

وهذه زهرة أخرى أضعها على قبرك بعد أن نجوت وكتبت لي الحياة من جديد.

* * *

كم أكره جمودها وبرودتها، هذي التي كتبوا على بابها الرمادي " غرفة العمليات " عندما تدخلها ينتابك شعورٌ مبهم باللاوجود، الأمور كلها تساوت لديك، بعد أن أودعت خلف الباب كل شيء أو رميته بلا اهتمام، وأنت تواجه مصيرك وحدك.

الألوان تتضارب حولك، الأبيض والرمادي تحتك بأعصابك، فيسمع لها صوت كالصرير، يتحشّى بين طيات السكون.

والسكون هناك له لغته الخاصة، وكأن من حولك أضاعوا لغتهم وحلّت محلها الإشارات والنظرات وحركة الحواجب.

وأنا مسوقةٌ إلى قدرٍ محتوم.

* * *

ثم لم أعرف ماذا حلَّ بجسدي؟ وأين أنا؟ وكيف تحوّلت إلى ذرةٍ تسبح في هذه الزوبعة الكونية، وتخترق بسرعةٍ جنونية هذه المسافات.

اعتصرني الألم، فإلى متى أظلُّ مرهونةً بعسف الترحال أدور في هذه العتمة السادرة، وكيف انفصل

جسدي عني هكذا في غفلةٍ من الحيرة دون قبرٍ أو شاهدة، أو عابرٍ يمرُّ بي.

كيف تحوّلت كل هذا التحوّل؟.. وأي إرادة كونية فعلت بي ما فعلت، فتناقص جسدي وتكوّم ثم اضمحل.

هل أنا الذرة الوحيدة في هذا القطار الذي يرعد ويشق الأنفاق فترتعش الذرة التي هي أنا، وتحدّق العيون الضريرة فيما حولها.. لا شيء... إلا هذا الارتحال الأبدي بلا هدف، لا أحمل إلا هذا الاسم.

وفجأة أتت عملية الهبوط الموجع من الأعلى والانحدا...ر إلى الهاوية... العتمة أخذت تنفرج، وها أنا أقترب. جسدي بدأ يتشكل من جديد، ولون الغرفة الرمادي تحوّل إلى لون زهري جميل مع صراخ طفلٍ.

سكتت صرخاته بعد دقائق وكأنه ورث عنك كل الأمراض.

* * *

من جديد عاد المطر، ولكنه في هذا العام أدخلني السجن فأحاطت بي قضبانه وبرودته، بينما عجلة الحياة تتحرك حولي فالأضواء والبروق تلمع في أنحاء الأرض، تتساقط الشهب المضيئة وتتعانق البشرية في غمرةٍ من الفرح وتقلب " الروزنامة " رقماً جديداً وأنا أخسر سنة بعد أخرى، وأمشي باتجاه حتفي كما مشيت قبلي فأعود إلى

تـلال الماضـي، وإلى خارطـة الذكـريات، ومـا تحـوي مـن رسائل وكتب وصور.

* * *

مـن يـدي سـقطت صـورة لأصـدقاء الجامعـة... حملـتها ودققـت فـيها تأملـته طـويلاً، ذاك المعجـب الـولهان، أيـن أصـبح يـا تـرى؟ وأيـن حـطَّ مـركبه؟.. وأخـذت تكـرُّ الذكريات.

ثم قلت قد تكون هذه الصورة إشارة لشيء ما...

فـالأحلام إشـارات وقـد تحمـل بعـض التنـبؤات، ورؤيـة بعـض النـاس مـصادفة قـد تكـون خطوة في طريق ما... وقد تفتح نافذة....

عـندما بـسطت للعـرّافة كفّـي... نظرت في عيني بقوة.. وأطالـت.. فـأحسـست أنـي أمـام مـصيري المحـتوم، وقـدري المكتوب بقوة في هذه الخطوط وقالت:

ستلتقيه....

لم تعـد تفـارقني الأحـلام، تغزونـي في كـل لـيلة، فالـبارحة حلمـت بـه رغمـاً عـني بعـد أن حاصـرتني صـورته ليلاً ونهاراً.

* * *

في ذلك المساء، كان المطر ينزل على جسدي رهواً فيوقظ فيَّ أحاسيس كانت مكنونة، وقفت في وسط الطريق وقد بللني، وكان فعل الحب قد بدأ بين السماء والأرض.

ثم ظهر أمامي فجأة، كما ظهر باريس الطروادي أمام هيلانه، فقلت هامسة

هذا زمن الأنبياء والمعجزات.

من عينيه قفز الفرح ورواداً عندما رآني، وكأنه وجد كنزاً وقف يتأملني بصمت، والحُبسة عقدت لسانه، ثم قال بعد دقائق نلتقي!! بعد خمس سنوات!!.....

لمَ لم تنتظري؟ ورفع يده ليردّ خصلة شعري المبتلة عرفتُ ما حصل، عندها وقفت على الحافة ما بين الجنة والنار.

* * *

بعد عودته دخلت في رحم زمانٍ آخر.. ووقف قطاري عند كوكبٍ آخر، كلٌّ ما فيه يختلف.

من جديد تركت الحب يتحدث عن نفسه، يقودني إلى حيث يريد، ويكون الآمر الناهي، فالقلب ليس له قواعد كما يقال، وهذا العالم الذي ساعدني على

الابـتداء بحلـمٍ آخـر، احتويـته وضـممته بـين أضـلاعي، وأخذت أقرأ المستقبل جيداً " فالنحل لا يلثم ميت الزهر".

لقد أعلنت حبي له، واتجهت إليه بكل ما أملك من وجدٍ ومن نيرانٍ مازالت تشتعل تحت جلدي، وأخذت الحياة مرة أخرى تفرش لي كل الدروب، بعد أن اخضرَّ ربيعي وأزهر.

وأنت برحيلك المبكر ـ وهذا ما يحزنني ـ قد حرمت من الانتظار الجميل، فلم تعد تنتظر شيئاً لا حباً ولا دفئاً أما أنا فأنتظر قدومه هذا المساء.

* * *

عندما قبلني..... غابت أمسيات الحزن، وتدفقت أنهار الحياة، فليرحل الكلام.

لم أتمهل قبضت على الجمر حتى احترقت، فماذا تفعل المرأة مع الحبِّ إن غاب الرقيب، وكنت قد قاومت كل الإغراءات، حتى جفّ فؤادي وعشت في اليباب، لم ألمح خلالها نجماً يساهرني أو أنيساً ينتظر: فكيف دخلت من الباب السريّ وتسللت إلي، وأنا ألهث في صحراء حياتي؟!

كأنك صممّت على الانتصار، فكيف أستطيع ـ وأنا الضعيفة ـ الانفلات.....!!

وها أنا أتبدّل بتبدل الفصول، فمرة أكون شهرزاد ومرة كليوباترا وتغير اسمي من فاطمة إلى هيام وإلهام وسمر وليال.

لقد عدت إلى الجنون القديم، وتوغلت فيه، لأني بدأت أتشوق لقهوة صباحٍ جديد أرشفها مع حبيب أمام واجهةٍ بلورية تستقبل انسياح المطر. ولكني انتظرته طويلاً..... لم يأت

فلم تصدق العرّافة.

ولم تصدق الأحلام.

# مجرّد أسئلة

# ضياع

كلانا ضائعان، أنا والدروب

نبحث عن نهايات سعيدة.

فكيف بعد نلتقي؟

إذ كلما تطاول النخيل وشمخ قصرت قامتك، حتى صرت قزمةً، بعد أن سقطت كلّ أوراقك، وخلعت كل أثوابك

فكيف أعيد النهر إلى منبعه؟

وكيف أعيد نسج الروح في مزهريةٍ تكوّمت شظايا.؟

# رجلٌ بين قوسين

كيف أقول إن وجهك شفاف اليوم ونظرتك صافية كماء نبعٍ وأنت تكدس فوقه كل تلك الوجوه، حتى أصبح بعلو مزبلة!

يا رجلاً يملك كل أدوات تحليقه وسقوطه معاً.

عندما طلبت مني أن أرسمك وأظهر مدى وسامتك لبستني الحيرة وفكّرت.

إذ كيف أرسمك برأس نعامةٍ، وجلد حمارٍ وأسنان تمساح، وانسياب سمكة، قد تغدو لوحتي لغزاً، يتحدث عنها النقاد ولا يصلون لشيء، وأكون قد تفوقت على لوحات السومريين والبابليين في مزج الأشكال والألوان.

فكيف تعلَّمت كل ذلك وسجنت روحك داخل هذه الأسوار وحرمتها نعمة التحليق، يا رجل الخرافة ويا ملك

كـل العـصور، إن تحـدثت، رغـم أن لكلماتـك طـراوة الـزبدة ومـذاقها، خـرج صـوت كالفحـيح مـدججاً دائمـاً بعـبارة بـين قوسـين، حتـى أصـبحت رجـلاً مختـصراً بـين قوسين صغيرين.

* * *

# عَودٌ على بدء

عندما عاد من غربته.. ظل يثرثر أياماً

تركته..

إذ كنت قد اشتقت لتلك الثرثرة.

ولكن ذاكرتي ظلت بطيئة العدو، فلكزتها محاولة استحضار أرواح الماضي، لأزيّنه بأوراق القصب، وأتوّج به حاضري.

ثم بحثت في أعماق وتلافيف دماغي المظلمة عن لحظة حبٍ منسية لم ينسخها بعد.. فلم أجد...

عندئذ... قلت له

لِمَ عدت؟!..

# غبـــاء

قال لزوجته بحقدٍ:

كل تلك الشهادات التي تحملينها، لا تساوي عندي هزة خصرٍ.

في اليوم الثاني قبل أن تحمل كتبها وشهاداتها وترحل تركت بضع كلماتٍ وورقة

للنحلة زهرها

وللسمكة بحرها

وللشراع أرواحه

وأنا..... لي كل هذا العالم

فلمَ أظلُّ أسيرة غبائكِ

* * *

# ناشـــز

تزوجت في المرة الأولى، ولم تكن قد رأته فطلقت.

وتـزوجت مـرة ثانـية، خُـدعت، فطلقـت، إذ كانـت الزوجة الثانية.

ثم تـزوجت مـرة ثالـثة فطلـب مـنها مـا يخالـف الـشرع فطلقت.

بعدها..... رُميت بالحجارة لأنها ناشز.

* * *

# حقـــد

الأجساد تتعرّى على الشاطئ، تتقلّى على الرمال الساخنة.. بينما هو كان عارياً من الداخل.

رفع مسدسه وشرع في القتل، وعندما حكم عليه القاضي بالسجن المؤبد لم يبد على وجهه التأثر، نظر إليه ساخراً واتجه نحو باب السجن طائعاً.

* * *

# كتـــابـــة

بعد أن غدا قلبه كالحشف البالي..

قيل له:

إن مـا تكتـبه الـيوم رديء يلفـظ أنفاســه الأخـيرة، دلاؤك تخـرج فارغـة بعد أن جفّت كل ينابيعك، وأصبحت أقـرب إلى الوادي الخاوي المهجور الذي لا زرع فيه ولا ضرع "فاغترب تتجدد "

رمقهم بنظرة باهتة، وعاد ليكتب زاويته الأسبوعية.

* * *

# حـــب...

قالت له:

إن ابتعدت عني ولو قليلاً، تصبح عيوني مرايا. ترحل معك... تدور حولك لتعكس ابتسامتك وبريق عينيك.

بعد شهرٍ كسرت كل المرايا.....

وعمّ ظلام.

* * *

# صـــورة . .

عـندما مـرّت اخـتطفها بـسرعة الـبرق وسـجنها في كاميرته

قال لأمه.... هذه هي حبيبتي بين (علا ورنا).

دقّقت الأم في الصورة طويلاً، فلم تر شيئاً، ولكنّه أصـرّ وحـاول أن يقـنعها جاهـداً أنهـا موجـودة في الـصورة فعلاً.

* * *

# تسوّل

على باب المدينة وقفت أتسوّل الحب
اندفع الناس وفي أيديهم أرغفة من الخبز
نظروا إلي شزراً، ولم تثرهم هيئتي المزرية، قالوا:
الحب عملةٌ ارستقراطية.....

* * *

على باب السجن وقفت أتسوّل الحب
كل الأبواب أوصدت في وجهي، ولكني ظللت أتسلل
حتى وصلت إلى الممرات الباردة
رفع الحارس فوهتي بندقيته وقال
لا يكون الحب بلا حرّية.

* * *

في غمرة بحثي وأمام لجة السؤال
طوّحت بالوردة بعيداً.
ركض طفلٌ والتقطها، ثم قدّمها بفرح لحبيبته.....
عروس المستقبل

* * *

# غـــادة

قلت لها:

مــا بالــك يــا صــديقتي تنثــرين حــولك الابتــسامات نجوماً؟...

تفيضين فرحاً مثل سدٍ طافحٍ، هل أحببتِ؟ التقيت فارسك بعد انتظار؟.

هكذا سألتها بتحسرٍ ممزوج بمضغة التأوه ومرارة الذكرى، وقد حاولت أن أخفي تجربة قديمة، في ظل أسئلة حائرة، ظلت بلا جواب

بفرح طفولي أجابت

هذه هي صورتنا معاً...

حقاً!...

( أتدرين يا صديقتي كيف تصبح المدن خراباً بعد زلزال!!..

وكيف يكون زورق رمته عاصفة على شاطئ متهتك مهجور!!

كذلك كنت في تلك اللحظات

نعم... هو حبيبي الذي غاب منذ سنتين..... فجأةً).

* * *

# حب افتراضي

عبثاً تنتظرين.....

فقطتك الأليفة التي كانت تتمرّغ في حضنك، وأنت تسحبين يدك على شعرها بحنان، لم تعد كذلك.

ورغم أنك لم تبخلي عليها بشيء، إلا أنها أخذت تنفصل عنك بشكل قاسٍ.

( نهاية غير سعيدة برأي الأم).

تقول لها:

أنت.... تطيلين الجلوس... ماذا ترسمين؟... من تحادثين؟....

أما هي، فقررت أن تختار مكاناً يتسع لأحلامها ونزعاتها وتفردها

تشكل حبيبها (البوي فرند) كما تشتهي وتلتقيه متى تريد.

يكبر الحلم ويتسع..... ثم تبوح له بسرّها.

أحبك.

ماذا تقول؟!.... ترد بحدةٍ

أين صوتك؟!

لمَ لا تخرج من هذا القمقم، كما خرج العملاق من مصباح علاء الدين.

يا إلهي....!! كم نحن قريبان وبعيدان!

لا أحس بحرارة كفيك، ولا بوهج شفتيك.... هيا اقترب... اقترب أكثر....

أمسكت الكمبيوتر وهزته بعنفٍ، في سورة غضبها، بعنفٍ أكبر وانفعال.

عندها..... غابت الصورة وغاب الحلم

* * *

# أبـــراج

مع ابتسامةٍ مشرقة أضاءت كل ضحاه، أطلت وقالت من sham TV عزيزي برج الميزان:

القمر اليوم في برجك، فأنت ستتألق وتنجح في كل مساعيك.

سُـر... وتخـيّل أن القمـر يـسير إلـيه خاضـعاً، حافـياً بقدميه الغضتين، بدراً رائع التكوين.

تعمّق في التفكير، كل الخلايا في جسده نشطت، وهـبت معـاً، مـاذا علـيه أن يفعـل لـيقطف ثمـرات هـذا اليوم؟....

إذاً.... لـيعلن خطوبـته فكـل المـسالك مفـتوحةٌ لقـران أبدي.

* * *

بعد الأغنية التي ترنّم بها على صوت الغد، خرجت المذيعة عن طوقها، وأعلنت وكأنها تخاطبه وتنظر في عينيه بشكل مباشر:

تعلن الأبراج عن خلو مسار في هذا اليوم فإياك أن تُقدم على أي عملٍ هام.

* * *

# رحيلٌ قسري

أمامي يمتدُ شريط أخضر
والسنونو المهاجر قد عاد
كنوز المعرفة تتمشى في القاعة بخيلاء
وأنا أتربع على عرش زنوبيا
بينما الطالبات أمامي كنّ كالقناديل المضيئة.
قرع الباب.. لم أسمع
ثم قرع مرة أخرى. دخل أناسٌ يزينون صدورهم بالأوسمة والشعارات
حملوني بعيداً....
وقالوا بثقةٍ مطلقة
لا تنظري وراءك، ولا تبحثي عن الأسباب

* * *

# شـــيء

أمالوني باتجاههم.... فملت
وعندما وقفوا.... وقفت
جلسوا..... فجلست

في هذه الأثناء اقتربت مني حيّة رقطاء ولدغتني، وهنا دخل الفرح إلى نفسي، فالله أراد أن يختبر صبري وإيماني بقضائه، وقد امتلكت كل حريتي الآن في أن أنظر إليها وهي تغرز أنيابها وتفرّغ السم في ساقي.

توجعت قليلاً..... أحدهم حرّك يدي لأمسّد ظهرها "الساتاني " اللامع وأقول لها..

" سيري يا مباركة "

* * *

# الفهرس

غيوم داكنة فوق جسر أبيض ..... 5
مستوطنة الفاق..... 37
حائط من ورق..... 81
أعمدة للحب ..... 97
همسات..... 99
بطاقة شعر ..... 102
إنها هي ..... 106
القطة لوسي ..... 108
ليالي المطر الدافئة..... 111
مجرّد أسئلة..... 123
ضياع..... 125
رجلٌ بين قوسين ..... 126
عَودٌ على بدء ..... 128
غباء..... 129
ناشز ..... 130
حقد..... 131

كتابة ..... 132
حب... ..... 133
صورة.. ..... 134
تسوّل ..... 135
غادة..... 137
حب افتراضي..... 139
أبراج ..... 141
رحيلٌ قسري ..... 143
شيء ..... 144
صدر للمؤلف ..... 149

## صدر للمؤلف:

1 ــ فـنجان قهـوة محاصـر، مجمـوعة قصـصية، صـادر عـن دار كيوان، دمشق

2 ـ ملصقات، مجموعة قصصية، صادر عن دار كيوان، دمشق

3 ـ لغة الصمت، مجموعة قصصية، صادر عن دار كيوان، دمشق